جراهام جرين

الرجل الهادئ

رواية

ترجمة

كمال الشريف

دراسة ومراجعة

منال عبد الرحمن

الكتاب: الرجل الهادئ (رواية)

الكاتب: جراهام جرين

ترجمة: كمال الشريف

دراسة ومراجعة: منال عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

جرين، جراهام

الرجل الهادئ / جراهام جرين، ترجمة: كمال الشريف، دراسة ومراجعة: منال عبد الرحمن
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٤٥٨ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٥٦٥١ / ٢٠٢٢

الرجل الهادئ

رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

"لم أعرف قط رجلًا كان لديه دوافع أفضل لكل المشاكل التي سببها"، هكذا يصف الراوي، فاولر، المبعوث الأمريكي ألدين بايل، الملقب بالأمريكي الهادئ.

بايل شاب مثالي أرسلته واشنطن في مهمة غامضة إلى فيتنام، حيث يحارب الجيش الفرنسي الفيتناميين. وبينما تؤدي سياساته حسنة النية إلى إراقة الدماء، يجد فاولر، المراسل البريطاني المحنك والساخر، أنه من المستحيل أن يقف ويراقب، لكن دوافعه للتدخل مشكوك فيها، سواء بالنسبة إلى الشرطة أو إلى نفسه.

وعلى الرغم من انتقاد رواية جراهام جرين، التي صدرت في عام ١٩٥٥، وقال عنها النقاد: "الرواية المعقدة والمليئة بالمؤامرات والمكائد المضادة"، كما وصفها البعض بأنها معادية لأمريكا، فإنها ستُثبت، في غضون سنوات قليلة بعد إصدارها، صحة موقفها بخصوص إدانتها للتدخل الأمريكي في فيتنام.

وقد تحولت هذه الرواية المثيرة للجدل، والتي تدور حول الحب والبراءة والأخلاق، إلى فيلمين سينمائيين ناجحين، وترجمت إلى أغلب لغات العالم، وبالطبع منها العربية التي عرفتها، فهناك ترجمة باسم "الأمريكي الهادئ" وهو

نفس الاسم الذي اختاره مؤلفها "جراهام جرين" لكن هناك ترجمة أخرى اختارت عنوان "الرجل الهادئ"، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ميل جراهام جرين في إثبات صفة الرجل على رواياته، فهناك الرجل من هافانا، الرجل الثالث، الرجل العاشر، الرجل الذي بداخلي.

وجراهام جرين الذي توفي عام ١٩٩١عن عمر اقترب من التسعين سنة قال عنه الروائي السير وليام جولدنج " جرين هو المؤرخ الأفضل على الإطلاق لوعي وقلق الإنسان في القرن العشرين".

وقالت مجلة «التايم»: «لا يوجد كاتب جاد في هذا القرن استطاع أن يغزو الخيال العام ويُشكله أكثر من «جراهام جرين»»، كما وصفته «الواشنطن بوست» بأنه «واحد من أفضل الكُتاب عموما في كل اللغات».

وكان جراهام جرين الذي ولد في بريطانيا عام ١٩٠٤ مهتماً بالصراع الروحي في عالم آخذ بالانهيار. وقد درس لاحقاً في جامعة أوكسفورد وعمل في الصحافة ثم ككاتب متفرغ كما عمل موظفاً في وزارة الخارجية البريطانية في غرب أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب سافر في رحلات مطولة. وتتميز أعماله بالتفاصيل الحيوية وتنوع الخلفيات (كوبا، أفريقيا، هاييتي، فيتنام) والتصوير الموضوعي للشخصيات الواقعة تحت مختلف الضغوط الاجتماعية والسياسية أو النفسية. الشر كلي الوجود.

وهو واحد من بين أبرز كتاب الرواية في القرن العشرين، وصاحب

مشروع أدبي متميز استمر قرابة سبعة عقود من الزمن، أصدر فيها خمساً وعشرين رواية، إضافة إلى كتب الرحلات والسيرة الذاتية. وكان قد وصل إلى القائمة القصيرة لجائزة نوبل عام ١٩٦٧ إلا أنه لم يحصل عليها. نالت رواياته شعبية كبيرة بسبب أحداثها المثيرة التي تدور في مناطق بعيدة، وتتضمن مطاردات ومخاطر، وتخوض في تفاصيل عالم الجاسوسية، ومع ذلك أظهرت أعماله قدرة على التعبير عن المأزق الوجودي للإنسان في العصر الحديث.

وفي أعماله المتأخرة فإن بُعداً من الشك والصراع الأخلاقيين قد أضيفا إلى الرعب والتشويق. في روايته «مون سينيور كيخوته» (١٩٨٢) فقد قارن ما بين الماركسية والكاثوليكية، ولكن لهجته فيها كانت أرق. كما نشر له بعد وفاته كتاب: «عالم يخصني: مذكرات حلم» (١٩٩٤) الذي كتبه في الأشهر الأخيرة من حياته، وهي مذكرات جزء منها خيالي وآخر يتعلق بسيرته الذاتية.

عود على بدء

ولد جراهام جرين عام ١٩٠٤، لعائلة ثرية جدا، إلا أنه كان طفلاً مُتمرداً ويُعاني أزمات نفسية دفعته إلى الهرب من عائلته في السادسة عشرة من عمره. وبعد أن عثر عليه أهله، كما حاول الانتحار أكثر من مرة، أرسله إلى لندن للإقامة لدى طبيب نفسي لمدة ستة أشهر، إلا أن ميوله الانتحارية لازمته لفترة طويلة.

وبالطبع لم يكن يُحب الدراسة، ولم يكن طالباً متفوقاً، إلا أنه التحق

بجامعة أكسفورد لدراسة التاريخ، حيث أصيب بحالات اكتئاب قوية، لكنه أصدر ديواناً شعرياً بعنوان "شهر إبريل الثرثار" لم ينل أي اهتمام. ويصف إصداره هذا الديوان بأنه «عمل طائش» ولم يطبع الديوان ثانية، ولم يكن يحب أن يذكره أو يشير إليه.

ولما تخرج في الجامعة عام ١٩٢٥ عمل مُعلماً لفترة من الوقت قبل أن يعمل صحفياً في صحف شهيرة عدة، حتى أصدر روايته الأولى عام ١٩٢٩، ولاقت نجاحاً كبيراً مكنه من التفرغ لكتابة الروايات إلى جانب كتابة بعض المقالات للصحف، إلا أن شهرته الحقيقية جاءت مع روايته الرابعة «قطار إسطنبول» عام ١٩٣٢، والتي تحولت إلى فيلم شهير هو «قطار الشرق السريع».

ثم تحول إلى الكاثوليكية عام ١٩٢٦ على يد فيفيان براوننج، التي تزوجها في العام التالي، وتناولت بعض رواياته شخصيات تتعامل مع الواقع بمنظور كاثوليكي، ما جعل الكثير من النقاد يعتبرون أعماله «روايات كاثوليكية». وقد نفى جرين بشدة هذا الوصف، لكن اسمه ارتبط بهذا النوع من الروايات حتى الآن، وربما يرجع السبب إلى استخدام روايته الشهيرة «القوة والمجد»، والتي تعد واحدة من أهم روايات القرن العشرين، في سياق سياسي واعتبارها عرضاً لاضطهاد رجال الدين، رغم انتقاد الرواية لرجال الدين بقدر انتقادها لرجال الثورة المكسيكية. تدور أحداث الرواية حول قيام أحد الضباط بمطاردة أحد القساوسة بعد قيام الثورة

المكسيكية، لأن الثوار ألقوا القبض على رجال الدين لدورهم المشبوه في دعم الإقطاعيين، وممارساتهم التي أدت إلى ظلم الشعب المكسيكي. أثناء المُطاردة المثيرة، يحاول بعض الفلاحين حماية القس رغم إدراكهم لفساده، ويُدرك القس كم كان حقيراً حين خدع هؤلاء البسطاء.

قدمت هذه الرواية شخصيات واقعية، لكل منها مميزاته وعيوبه ومبرراته ولحظات ضعفه. كان القس في الرواية فاسداً ومُخادعاً بينما كان الضابط شريفاً رغم قسوته ورغبته في الانتقام، لكن القارئ يتعاطف قرب نهاية الرواية مع القس الذي يُقرر العودة إلى المكسيك بعد اجتياز الحدود، لكي يستمع إلى اعتراف سيدة تحتضر، رغم ثقته بأن الضابط سوف يلقي القبض عليه. وفي عام ١٩٥٣، هاجم مكتب بابا الفاتيكان الرواية، لأنها دمرت سُمعة ومكانة القساوسة، وحين التقى جرين بالبابا بول السادس، أخبره البابا أن روايته أغضبت الكاثوليك، لأنها تحمل الكثير من الإساءة إليهم.

كذلك كتب جرين عدداً من الروايات التي تتناول أحداثاً سياسية، عُرفت بروايات المؤامرة الدولية، وتدور أحداثها حول عالم الجاسوسية. وكان يستند في كتابة تلك الروايات إلى خبرته الشخصية، إذ دخل إلى عالم الجاسوسية بعد أن جندته المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان يستخدم الأماكن والشخصيات والأحداث الحقيقية في رواياته.

وقد استغلت المخابرات البريطانية عمله كصحفي، الذي يزيد من

قدرته على التنقل بحرية في أغلب دول العالم. وكانت علاقته بالزعيم الكوبي فيدل كاسترو قوية بشكل مثير للاهتمام، فهناك أقاويل أنه كان يساعد ثوار كوبا أثناء حربهم في الجبال، كما التقى كاسترو بعد وصوله إلى الحكم، وأهداه كاسترو لوحة رسمها بنفسه، إلا أنه أعرب عن غضبه من جرين بعد أن قرأ روايته «رجلنا في هافانا» عام ١٩٥٨، والتي تدور أحداثها في كوبا، لأنها لم تعرض لمساوئ فترة حكم باتيستا كما ينبغي.

وفي عام ١٩٦٦، نشر جرين رواية «الممثلون الكوميديون»، التي تدور أحدثها في هايتي وتنتقد التعذيب في السجون، والتي أغضبت حاكمها فرانسوا دوفاليه، وجعلته يحاول الانتقام من جرين.

وصف جرين أعماله التي تدور في عالم الجاسوسية بأنها ليست روايات، بل مجرد قصص مُسلية، كما اتهمها عديد من النقاد بالافتقار إلى الطابع الأدبي الحقيقي، وبأنها روايات سينمائية الطابع، وأنه كان يكتب الرواية كأنه يكتب سيناريو لأحد أفلام هوليوود، ولهذا تحولت أغلب قصصه ورواياته إلى أفلام، حقق بعضها شهرة عالمية.

وتعتبر رواية «قضية خاسرة» واحدة من أهم رواياته على الإطلاق، لأنها أكثر ما كتب تعبيراً عن أزمة الوجود الإنساني، بطلها مهندس شهير وثري، يكتشف مدى خواء حياته وافتقارها إلى أي معنى، فيقرر التخلي عن ثروته ومجده ليقضي حياته في العمل في مصحة لمرضى الجُذام بالكونغو، يُديرها مجموعة من المُبشرين الأوروبيين. وتعكس هذه الرواية ما

يتعرض له إنسان العصر الحديث من أزمات روحية تعصف به وتفقده الإحساس بالحياة.

وكان جرين يرى أن المنظور الديني من أهم العوامل في فهم الإنسان وأزمته الوجودية، وقد يؤدي إغفال هذا المنظور إلى أن تبدو الشخصيات أشبه بنماذج كرتونية تتحرك في عالم من الورق. اتسمت شخصياته الرئيسية كذلك بالحيرة والعجز في مواجهة الطبيعة والتعرض لسوء الفهم في العلاقات البشرية، كما تبوء محاولاتها في فهم الواقع أو التكيف معه بالفشل.

ومنذ البداية التزم جرين بمأزق الإنسان المنهار، بالازدواجية في العقل البشري، في الجاذبية المغرية للشر والخير معاً، يشده دائماً التعبير عن فظاظة الحياة الاجتماعية، وكان دائماً يرى أن «الكتابة نوع من العلاج النفسي»، كما يؤكد في مذكراته: «أتساءل أحياناً، كيف يمكن لكل أولئك الذين لا يبدعون أدباً أو فنّاً أو رسماً أو موسيقى، الهروب من الجنون والخوف المرعب المتأصل في الموقف الإنساني الذي نعيشه، وقد قال الشاعر الإنجليزي «أودن»: الإنسان يحتاج إلى الهروب، كما يحتاج إلى الطعام والنوم العميق، وأنا أهرب إلى الرواية».

وبعد أن بلغ الثمانين من عمره، قرر جرين الانعزال عن العالم وقضى سنواته الأخيرة في قرية «فيفي» بسويسرا، وهناك التقى بالفنان العظيم تشارلي شابلن الذي اختار نفس القرية ليقضي بها آخر أيامه، وجمعت

بينهما صداقة قوية. ومن المفارقات الطريفة أن ذلك الصبي الذي حاول إنهاء حياته مرات عدة، عاش حياة طويلة وتوفي وهو في السابعة والثمانين من عمره، عام ١٩٩١. نال جرين قبل وفاته العديد من الجوائز وحصل على وسام الاستحقاق البريطاني عام ١٩٨٦، كما استمر الاحتفاء بتراثه بعد وفاته، إذ يقام مهرجان دولي سنوي باسمه، ويُعقد يوم عيد ميلاده في القرية التي ولد بها.

منال عبد الرحمن

الفصل الأول

بعد أن تناولت عشائي جلست أنتظر «بيل» في غرفتي المطلة على شارع «كاتيثات» بسايجون، فقد واعدني على اللقاء في الساعة العاشرة مساءً على الأكثر، وعندما أعلنت الساعة انتصاف الليل لم أستطع صبرًا وخرجت من مسكني إلى الشارع.

وكان الشارع به كثير من النساء اللواتي يرتدين «البنطلونات» ممن دفعتهن حرارة الجو إلى ترك منازلهن فقد كان الوقت في شهر فبراير والحرارة شديدة مما يجعل النوم في الفراش متعذرًا، ومر بي سائق «ريكشو» متجهًا إلى النهر ورأيت المصابيح مضاءة حيث أفرغت الطائرات الأمريكية الجديدة، ولم أر أثرًا لبيل في الشارع وقلت لنفسي ربما ذهب لسبب ما إلى مقر البعثة الأمريكية، وتوقعت أنه إذا كان قد فعل ذلك فلابد أنه ترك خبرًا في المطعم، فلقد كان ممن يهتمون بالواجب واللياقة، وإضطررت لأن أدخل المطعم عندما لمحت فتاة تقف في مدخل المبنى المجاور للمطعم ولم أكن أستطيع رؤية وجهها بل كل ما رأيته هو «بنطلونها» الحريري الأبيض والرداء «المشجر» الذي ترتديه فوقه، وبرغم ذلك فقد عرفتها، فطالما إنتظرتني هي نفسها عند عودتي إلى المنزل في مثل هذا الوقت وهذه الساعة وقلت لها ناديًا:

– «فونجج» إنه غير موجود فردت عليَ قائلة:

– أنا أعلم فقد رأيتك وحدك من النافذة.

– يمكنك أن تنتظريه في المنزل. عودي فسوف يأتي حالًا.

فردت عليَ قائلة:

– سأنتظره هنا.

فقلت لها:

– يحسن ألا تنتظريه هنا فقد يقبض عليك رجال البوليس.

فتبعتني إلى المنزل، وفي الطريق راودتني أفكار مؤلمة ولم أكن راغبًا في جرح شعورها أو إيلام نفسي، وظللنا سائرين إلى المنزل وعندما مررنا بالنسوة الجالسات في الطريق سمعناهن يثرثرن بكلام لم أفهمه فقالت:

– ماذا تقول تلك النسوة؟

– إنهن يقلن أنني قد عدت إلى المنزل.

ووصلنا إلى المنزل وفي الغرفة رأيت الشجرة التي أعددتها لعيد رأس السنة الصينية الجديدة قد تناثرت زهورها الصفراء وسقطت على مفاتيح آلتي الكاتبة، فجمعت الزهور المتناثرة، وقالت فونجج:

– هل هناك إضطرابات في المدينة؟

– لا أعتقد ذلك فإن «بيل» ممن لا يسعون إلى المتاعب وهو رجل لا يخلف مواعيده.

وخلعت ربطة العنق والحذاء وتمددت على السرير وأخذت فونجج تغلي الماء لعمل الشاي كما كان الحال منذ ستة شهور.

وقالت فونجج:

– لقد قال لي: أنك سوف تسافر قريبًا.

– ربما.

– إنه يحبك جدًا.

– إني أشكره.

ولاحظت أنها قد صففت شعرها بطريقة جديدة، فقد جعلته يسترسل على كتفيها. وتذكرت أن «بيل» كان قد نقد طريقة ترتيبها لشعرها. وأغمضت عيني وفكرت فيها – إنها بالنسبة لي تمثل صوت الماء وهو يغلى وإرتطام فنجان الشاي بالطبق – إنها تمثل ساعة من الليل والراحة. وقالت وكأنما تريد أن تعزيني لغيابه:

– إنه لن يتأخر طويلًا.

وأخذت أفكر فيما يتكلمان عنه إذا إلتقيا – فقد كان بيل جادًا أكثر من اللازم وطالما أرهقني بمحاضراته عن الشرق الأقصى الذي لم يعرفه هو إلا من بضعة شهور على حين قضيت فيه سنوات طوال.

وكانت الديموقراطية هي الموضوع الثاني الذي يجب أن يتكلم فيها ويكثر من الكلام عما تقوم به الولايات المتحدة من أعمال – أما فونجج

فكانت ذات جهل مطبق – فلو فرض أن ورد اسم هتلر في حديثنا لتدخلت وسألت ومن يكون هتلر؟ وكان الشرح والإيضاح لها صعبًا فهي لم تقابل ألمانيًا أو بولنديًا في حياتها ولم يكن لديها أية معلومات عن جغرافية أوربا – في حين أنها كانت تعرف عن البعض أكثر مما أعرف فهي تعرف عن الأميرة مرجريت أخت ملكة إنجلترا أكثر مما أعرف أنا – وسمعتها تضع الصينية على طرف السرير وأنا مغمض عيني – فسألتها:

– أما زال بيل يحبك يا فونجج؟

ومددت ذراعي قائلًا:

– هل هو...

فضحكت وسمعت صوت إشعال عود كبريت وقالت:

– يحبني

فربما لم تفهم معنى سؤالي ثم قالت لي:

– هل أعد لك الشراب؟

وسرعان ما أعدت الطاولة وأشعلت المصباح وانعكس ضوء المصباح على ملامحها التي في لون العنبر وهي تنحني فوق اللهب وقد ركزت إهتمامها وهي تضع الزجاجات على المائدة.

وقلت لها:

– أما زال بيل يشرب؟

فقالت:

– نعم.

فقلت لها:

– يحسن بك أن تجعليه يفعل وإلا فلن يعود إليك.

وانشغلت هي في إعداد المائدة، وبلغت الساعة المثبتة بجوار سريري الثانية عشرة والثلث واستراحت أعصابي وذهب عني التفكير في بيل.

وقلت لها:

– أنت تعلمين أن بيل يعرف عني حبي للشراب قبل أن آوي إلى فراشي وهو لا يحب أن يزعجني في مثل هذا الوقت وأعتقد أنه سوف يأتي في الصباح.

وناولتني الكأس التالية وقلت لها وأنا أضطجع في فراشي:

– لا تقلقي عليه فليس ثمة داع للقلق على الإطلاق.

وتناولت رشفة من الكأس وواصلت حديثي معها:

– عندما تركتني وذهبت مع بيل كان من حسن حظي أنني متعود الشراب لكي أنسى هناك المنزل الجميل في شارع أورماي – لو أحببت – يجب عليك أن تعيشي لدي رجل لا يشرب يا فونجج.

فردت قائلة:

– لكنه وعد بأن يتزوجني.

فقلت:

– هذا بالطبع موضوع آخر.

ثم قالت:

– هل أعد لك كأسًا ثالثة؟

– نعم.

وأخذت أسائل نفسي: هل يمكن أن تبيت لديَ هذه الليلة لو أن بيل لم يأت؟

وقلت لها:

– إن بيل لن يأتي الآن أرجو أن تبقى معي.

فناولتني الكأس وهزت رأسها نفيًا. وما إن تناولت عدة جرعات حتى أصبح وجودها أو عدمه ذا أهمية ضئيلة.. وقالت:

– لماذا لم يأت بيل؟

– أنى لي أن أعرف السبب؟

– هل ذهب لمقابلة الجنرال ثي؟

– لا أعرف عن ذلك شيئًا.

– لقد قال لي أنه إن لم يتناول عشاءه معك فسوف يحضر إليك في منزلك.

– لا تقلقي .. فسوف يحضر.

ثم قلت بصوت عال:

– تمنيت لو كنت بيل.

وكان ألمي من قول هذا محتملًا فقد ساعد الشراب على ذلك، وقرع طارق الباب فقلت:

– بيل.

فقالت:

– لا. إنه ليس هو فليست هذه بطريقة قرعه للباب.

وقرع الطارق الباب بنفاد صبر، فقفزت من مكانها نافدة الصبر وهوت شجرة عيد الميلاد فتساقطت أوراقها الصفراء ثانية على آلتي الكاتبة. وفتح الباب ودخل رجل وقال:

– مسيو فوليه.

– أنا فرلر.

ولم يكن في عزمي النهوض من أجل أحد رجال البوليس، وكنت

أستطيع أن أرى «بنطلونه» القصير الكاكي دون أن أرفع رأسي وقال:

– إنك مطلوب حالًا في إدارة البوليس.

– إدارة البوليس الفرنسية أو الفيتنامية؟

– الفرنسية.

قلت:

– ولماذا؟

– لا أعرف.

وأشار إلى فونجج وقال:

– وأنت كذلك.

– خاطب السيدة بلهجة أكثر أدبًا. كيف عرفت أنها هنا حتى تطلبها؟

فقال إنه ينفذ الأوامر الصادرة له.

– سوف أذهب إلى إدارة البوليس صباحًا.

– إنك مطلوب حالًا.

فنهضت ولبست رباط العنق والحذاء، فقد كنت أعلم أن للبوليس سلطة واسعة وهو يستطيع أن يسحب الإذن «الممنوح» لي بالتجوال ويستطيع أن يحرمني حضور المؤتمرات الصحفية التي تعقد. بل إنهم

يستطيعون أن يحرموني تأشيرة الخروج. فالبلاد في حالة حرب. وقانونية التصرفات ليست لازمة. وكنت أعرف رجلًا غاب عنه طاهيه – فلما ذهب يسأل عنه البوليس – قالوا له إنهم أطلقوا سراحه ولا يعلمون عنه شيئًا وكذلك كانت عائلته لا تعلم مكان وجوده منذ طلبوه في البوليس . وقالو لهم: ربما انضم إلى الشيوعيين. أو انضم إلى أحد الجيوش الخاصة بالهيئات المختلفة في البلاد التي يكثر عددها حول سايجون مثل جيوش الهاو هاو أو الكاوديست أو جيش الجنرال ثي. وربما كان في أحد السجون الفرنسية – وقد يكون سعيدًا يربح الأموال من كسب النساء في أحد الأعمال – وقد يكون قد أصيب بنوبة قلبية في أثناء استجوابه ومات.

وقلت لرجل البوليس:

– إنني لن أذهب ماشيًا يجب أن تستأجر لي عربه ريكشو. فمن الواجب أن يحافظ الإنسان على كرامته.

ولهذا السبب رفضت أن أتناول سيجارة من الضابط الفرنسي في إدارة البوليس وأنا أستطيع أن أتخذ قرارًا سريعًا بسهولة بدون أن أغفل عن معنى الأسئلة التي توجه إليَ .. وسألت نفسي: ماذا يريدونه مني؟ فقد قابلت فيجو مفتش البوليس قبل ذلك في عدة حفلات – وقد لاحظت أنه يحب زوجته التي تتجاهله – وهي سيدة براقة المظهر شقراء الشعر – وفي إدارة البوليس رأيته جالسًا خلف مكتبه وقد ظهر عليه التعب والإنهاك وسط دخان السجائر والحرارة الشديدة وقد ارتدى «غطاء» فوق عينيه

أخضر اللون ليحمي نظره من الضوء وأمامه على المكتب كتاب للكاتب الفرنسي «باسكال» يقطع الوقت بقراءته – وقد منعته من إستجواب فونجج إلا في حضوري فوافق على الفور دون معارضة وهو يتنهد بشكل يمثل ضيقه وتبرمه بالمقام في سايجون وشدة الحرارة وبأحوال البشر كافة وقال لي بالإنجليزية:

– إنني آسف إذ طلبت منك المجيء.

فقلت إنه لم يؤخذ رأيي في ذلك بل أمرني بالحضور.

فقال:

– إن العيب في ذلك يرجع إلى جهل رجال البوليس من أبناء البلاد.

وكان يتكلم وعيناه على صفحة الكتاب وقد تاه في المناقشات التي يحويها. ثم قال:

– إنني أريد أسألك بعض الأسئلة عن بيل.

– يحسن بك أن توجه هذه الأسئلة إلى بيل نفسه.

ثم أخذ مفتش البوليس يسأل الفتاة:

– من حوالي شهر لا أعرف بالتأكيد.

– كم أعطاك نظير إقامتك معه.

فقلت له:

– ليس لك الحق في أن تسألها هذا السؤال فإنها ليست سلعة للبيع.

فقال:

– لقد كانت تعيش معك – أليس كذلك – لمدة سنتين.

فقلت:

– إنني مراسل صحفي مفروض في أن أتتبع أخبار حربكم وليس لك أن تسألني عن نظامكم المحلي.

فقال:

– ماذا تعرف عن بيل؟ أرجو أن تجيب عن أسئلتي يا مسيو فولر. إنني لا أحب أن أوجه هذه الأسئلة – ولكن الأمر «خطير» – أرجو أن تصدقني أن الأمر في غاية الخطورة.

فقلت:

– إنني لست واشيًا. كل ما أستطيع أن أقوله لك عن بيل إن سنه إثنتان وثلاثون سنة، ويعمل في بعثة المساعدة الإقتصادية وجنسيته أمريكي.

فقال:

– إنك تبدو كصديق له.

وكان ينظر إلى فونجج ودخل أحد رجال البوليس الوطنيين يحمل ثلاثة أقداح من القهوة وقال فيجو:

– أو تحب أن تشرب الشاي؟

فلم أرد عليه. وقلت:

– إنني صديق لبيل ولماذا لا أكون؟ فسوف أعود إلى وطني يومًا ما .. أليس كذلك؟ إنني لن أستطيع أن أخذها معي وسوف تكون سعيدة معه. فإن هذا ترتيب معقول وسوف يتزوجها – فلقد قال لها ذلك – وهو كشخص لا بأس به فهو جاد، وليس أحد هؤلاء المزعجين الذين يقيمون في فندق الكونتيننتال إنه «أمريكي هادئ».

بدا عليه أنه ينظر إلى كلمات على مكتبه توضح ما عناه بسؤاله.

قلت:

– نعم. إنه أمريكي هادئ جدًا.

وجلس في مكتبة الشديد الحرارة ينتظر من أحدنا أن يتكلم. ودخلت ناموسة وهي تطن متأهبة للهجوم، وأخذت ألاحظ فونجج، وبدا عليها أنها لم تفهم ما عناه فيجو لأن معرفتها بالإنجليزية كانت سيئة، وكانت جالسة فوق مقعدها الخشبي في مكتب البوليس وهي لا تزال تؤمل لقاء بيل، ورأيت أن فيجو قد سره ذلك وسألني:

– كيف عرفته أول مرة؟

وسألت نفسي: لماذا أشرح له أن بيل هو الذي عرفني أولًا. فقد رأيته في سبتمبر الماضي قادمًا عبر الميدان قاصدًا «بار» الكونتيننتال،

وشاهدت شابًا غير مألوف ينظر إلينا بسرعة وكان بساقيه الطويلتين وشعره القصير ونظرته الصافية يبدو أنه غير قادر على الإيذاء وكانت المناضد المنصوبة على الطريق كلها مشغولة وتقدم منا وسألني:

– هل تسمح لي بالجلوس معكم؟

ثم قال بأدب:

– إن اسمي بيل، وأنا حديث العهد بالمدينة.

وجلس في كرسي وطلب زجاجة بيرة. ثم نظر بسرعة حين دوى صوت انفجار وقال بلهفة وأمل:

– هل هذا صوت قنبلة يدوية؟

وقلت وأنا آسف لخيبة أمله:

– أكثر ظني أنه صوت عادم إحدى السيارات.

ولم يكن صوت القنابل اليدوية يثير اهتمامي لكثرتها بل كنت أسعى إلى ما يمكن أن يسمى بالأخبار الحقيقية وفي الشارع ظهرت النساء الوطنيات وقد إرتدين السراويل الحريرية البيضاء و «السترات المشجرة» المحبوكة ذات الألوان الزاهية المشقوقة من الجانب، وأخذت أراقبهن وأنا أفكر في أنني سوف أفتقد منظرهن عندما أترك هذه البلاد.

وقال بيل:

– إنهن جميلات أليس كذلك؟

ونظرت إليه من أعلى كأس البيرة التي أشربها ورددت قائلًا بغير اهتمام:

– آه. طبعًا.

فقد كان من النوع الجاد. ثم قال:

– إن الوزير المفوض مهتم كثيرًا بإنفجارات القنابل اليدوية، فلو أصيب أحد منا فإن ذلك يكون مخيفًا.

فقلت:

– أصيب أحد منكم؟

فقال:

– نعم. إني أرى أن ذلك يكون خطيرًا فإن الكونجرس الأمريكي لن يحب ذلك.

وسألت نفسي: لماذا يجب الإنسان أن يضايق السذج فربما كان هذا الشخص منذ عشرة أيام فحسب يسير في شوارع بوستن وذراعاه مملوءتان بالكتب التي قرأها عن الشرق الأقصى ومشاكل الصين. ولكنه لم يظهر عليه أنه سمع ما قلت فقد كان مشغولًا بمشاكل الديمقراطية ومسئوليات الغرب، وبدا عليه أنه كان قد عقد عزمه أن يكون مخلصًا لا لفرد معين ولكن إلى دولة. إلى قارة. إلى عالم. حسنًا هذا هو العالم كله فليحاول أن يصلح ما فيه من أخطاء.

وسألت فيجو:

– هل هو في المشرحة؟

فسألني:

– وكيف عرفت أنه مات؟

وكان سؤالًا سخيفًا غير جدير برجل يقرأ «باسكال» وسخيفًا كذلك من رجل يحب زوجته بشكل غريب فأنت لا تستطيع أن تحب بغير خيال.

وقلت:

– إنني غير مذنب.

كما قلت لنفسي: إن ذلك صدق. ألم يكن بيل يرسم دائمًا طريقه بنفسه وبحثت في أعماق نفسي عن أي شعور حتى أمام شكوك رجل بوليس فلم أجد شيئًا، ونظرت بجد إلى فونجج فإن الخبر سيكون صعبًا عليها، فلابد أنها أحبته بطريقتها. ألم تكن تهواني أم تركتني وذهبت إلى بيل، لقد ربطت نفسها بالشباب والأمل والطموح، ولكن الشباب والأمل والطموح قد خيبت ظنها أكثر من التقدم في السن واليأس، وجلست في مكانها وهي تنظر إلينا، وظننت أنها لم تفهم بعد أنه قد مات. وسوف تكون فكرة صائبة لو استطعت أن أبعدها قبل أن تدرك الحقيقة وكنت مستعدًا أن أجيب عن كل الأسئلة لو استطعت أن أنهي المقابلة بسرعة لكي أتمكن من أن أقول لها الحقيقة فيما بيننا وبعيدًا عن نظرة رجل البوليس وكراسي مكتبة الخشنة

والمصباح العاري الذي أحاط به الناموس وقلت لفيجو:

– ما هو الوقت الذي يهمك أن تعرف فيه تحركاتي؟

قال:

– ما بين السادسة والعاشرة.

– إني متعود تناول مشروب في السادسة «بلوكاندة» الكونتننتال والسقاة يعرفونني.

وفي الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة تمشيت على رصيف الميناء لأرى الطائرات الأمريكية وهم يفرغونها، ورأيت ويلكنز من وكالة الأنباء المتحدة واقفًا على باب فندق ماجستيك.

ثم دخلت السينما المجاورة، ومن السينما توجهت إلى مطعم الطاحونة وأعتقد أني وصلت إلى هناك في الثامنة والنصف وتناولت عشائي بمفردي وكان هناك «جرانجر» وتستطيع أن تسأله، ثم أخذت عربة إلى المنزل في العاشرة إلا الربع وتستطيع أن تعثر على السائق حيت أني كنت أنتظر بيل في العاشرة ولكنه لم يحضر.

– ولماذا كنت تنتظره؟

– لقد خاطبني تليفونيًا. وقال إنه يريد أن يراني لأمر هام.

– هل لديك فكرة عن هذا الأمر؟

– لا إن كل شيء كان مهمًا بالنسبة لبيل.

– وهذه الفتاة التي تحبه هل تعرف أين كانت؟

– كانت تنتظره في الخارج عند منتصف الليل وكان يبدو عليها أنها مشغولة إنها لا تعرفها شيئًا لماذا؟ ألا ترى أنها مازالت تؤمل رؤيته؟

– بلى.

– وهل تعتقد أنني قتلته بسبب الغيرة، أو أنها قتلته لأي سبب؟ إنه كان سيتزوجها.

قال:

– نعم.

ومرت فترة من الصمت ثم سألته:

– أين وجدتموه؟

فقال:

– أسفل «الكوبري» غريقًا في الماء.

وكان مطعم الطاحونة مجاورًا «الكوبري»، وعلى «الكوبري» بوليس مسلح وكان للمطعم غطاء من الحديد المشبك لكي يمنع دخول القنابل اليدوية ولم يكن عبور «الكوبري» مأمونًا في الليل. إن الشاطئ الآخر يكون تحت سيطرة الفيتناميين بعد حلول الظلام، ولابد أني تناولت عشائي على بعد خمسين ياردة من جثته.

وقلت:

– إن المشكلة هي أنه أقحم نفسه في المتاعب.

وقال فيجو:

– بصراحة، إنني لست آسفًا على موته، فقد كان يتسبب في أضرار كثيرة.

فقلت:

– فليحفظنا الله دائما من السذج.

قال:

– نعم.

– ألا تستطيع أن ترى طريقته وعلى كل فقد كان أمريكيًا عجيبًا.

– هل يمكن أن تتعرف عليه؟ إني لآسف، ولكن «الروتين» وإن كان روتينًا غير محبب.

ولم أهتم بسؤاله: لماذا لم يطلب أحد موظفي المفوضية الأمريكية؟ لأني أعرف السبب فإن للفرنسيين وسائل عتيقة بالنسبة للمقاييس عندنا، فهم يؤمنون بالشعور بالذنب، وإن المجرم يجب أن يواجه بجريمته فقد يؤدي ذلك إلى انهياره واكتشاف أمره.

وقلت لنفسي مرة أخرى: إنني برئ.

ومضى فيجو إلى «البدروم» حيث توجد المشرحة وصوت الموتور للتبريد يعمل – وسحبوه من مكانه كما يسحب الإنسان «صينية» من مكعبات الثلج ونظرت إليه – وكانت الجروح متجمدة – وقلت لفيجو:

– ألا ترى أن الجروح لم تتفتح في حضوري؟ لقد بالغتم في «تثليجه» إن البشر لم يكن لديهم ثلاجات في العصور الوسطى.

– هل تعرفت عليه؟

– آه. نعم.

وكان أصلح له لو بقي في وطنه. فقد رأيته في صورة عائلية يمتطي جوادًا في مزرعة كما رأيته في صورة يستحم في أحد الشواطئ في الولايات المتحدة، ورأيت صورة ثالثة له في أحد الأدوار العليا في مباني نيويورك. إنه كان يسكن في إحدى ناطحات السحاب ويمارس المصارعة السريعة ويقوم بتناول الآيس الكريم وشرب كؤوس المارتيني، وتناول اللبن عند الغداء «وسندوتشات» الدجاج.

وقال فيجو:

– إنه لم يمت بسبب هذا «وهو يشير إلى الجرح في صدره».

– إنكم تعملون بسرعة.

– يجب علينا ذلك في مثل هذا الجو.

وأعادوا الطاولة الممدد عليها إلى مكانها وأغلقوا الباب. وقال فيجو:

– ألا تستطيع أن تساعدنا؟

– نعم لا أستطيع.

وعدت مع فونجج ماشيًا إلى مسكني، وكانت فونجج لا تزال غير مدركة لما حدث ولم يكن لديَ طريقة لإخبارها بما حدث برفق وعلى مهل.وكنت مراسلًا صحفيًا وأخذت أفكر بعقل الصحفي: «موظف أمريكي يُقتل في سايجون» وأخذت أفكر في الصحيفة التي أعمل بها وقلت لفونجج:

– هل تسمحين بانتظاري عند مكتب التلغراف؟

وتركتها وأرسلت التلغراف وعدت إليها وكنت أعلم أن الصحفيين الفرنسيين لابد أن يكونوا قد علموا بالحادث ولو أن فيجو كان منصفًا لأوقف الرقيب يرقبني حتى يرسل الفرنسيون برقياتهم – وبرغم أن بيل لم يكن مهمًا – فإنه قبل موته كان مسئولًا – على الأقل – عن موت خمسين فردًا وكان من الخطأ إرسال برقية مطولة تبين نشاطه لأن ذلك سوف يؤدي إلى سوء العلاقات الأنجلو أمريكية. فسوف يتألم الوزير المفوض الأمريكي الذي كان يقدر بيل لأنه حاصل على درجة عالية في أحد الموضوعات التي يمكن أن يحصل الأمريكيين على درجات فيها وربما كانت في العلاقات العامة أو في الدراسات الخاصة بالشرق الأقصى. فلقد قرأ كثيرًا من الكتب. وسألتني فونجج:

– أين بيل؟ ماذا يريد منا البوليس؟

فقلت لها:

– تعالى إلى المنزل.

قالت:

– هل سيأتي بيل؟

فقلت:

– إن احتمال حضوره إلينا مثل احتمال ذهابه إلى مكان آخر.

وكانت النسوة العجائز ما زلن يثرثرن على الشاطئ في الجو الذي اعتدل بعد حرارة النهار. وعندما فتحت بابي عرفت أن غرفتي قد فُتِشت. فإن كل شيء كان مرتبًا أحسن مما تركته.

وقالت فونجج:

– هل أعد لك الشراب؟

– نعم.

وخلعت رباط العنق والحذاء، فإن الصراع قد انتهى، وجلست فونجج القرفصاء عند طرف السرير وأشعلت الصباح ولون جلدها في لون العنبر. وقلت لها بالفرنسية:

– لقد مات يا فونجج.

فأمسكت بالكأس في يدها ونظرت إليَ وهي تحاول أن تركز فهمها

كطفل وقد قطبت بين حاجيها قائلة:

– هل مات؟

– إن بيل قد مات. لقد قُتل.

فوضعت الإبرة من يدها وجلست على مقعدها ونظرت إليَ. ولم يكن هناك شهود أو دموع بل تفكير فحسب.

وقلت:

– يحسن بك أن تبقى الليل هنا.

فأطرقت برأسها، وفي هذه الليلة استيقظت من نومي العميق وكانت نائمة وكان من الصعب أن أسمع صوت تنفسها. وهكذا بعد شهور طوال لم أعد وحدي، ثم فكرت وقد إعتراني الغضب من فيجو ونظارته الخضراء في مكتب البوليس وممرات المفوضية الأمريكية وسألته نفسي: «هل أنا الوحيد الذي يهتم حقيقة بأمر بيل؟».

الفصل الثاني

في اليوم الأول الذي رأيت فيه بيل يعبر الميدان متوجهًا إلى الكونتيننتال كان هناك عديد من زملائي الصحفيين الأمريكيين، وكانوا خليطًا من الشباب متوسطي العمر فيهم من تغلب عليه سمات الطفولة وفيهم المهرجون وفيهم ضخام الأجسام وصغارها، وكانوا جميعًا يطلقون النكات اللاذعة على الفرنسيين الذين كانوا يخوضون الحرب.

فبعد كل اشتباك بين قوات الطرفين وبعد إزالة المصابين في المعركة كان الفرنسيون يدعوهم إلى هانوي التي تبعد عن سايجون مسافة أربع ساعات بالطائرة لكي يخاطبهم القائد العام الفرنسي مقدمًا لهم النتائج والأخبار، ويقيمون ليلة في معسكر أُعد للصحفيين، ثم تأخذهم السلطات العسكرية في طائرات تطير بهم على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق ميدان المعركة وهذا الإرتفاع هو أقصى مدى للمدافع الرشاشة. ثم تعود بهم الطائرات إلى سايجون حيث يقيمون في فندق الكونتيننتال.

وكان بيل هادئًا ويبدو متواضعًا، وفي أول يوم قابلته كنت أضطر أن أميل ناحيته لكي أستطيع أن أسمع ما يقول وكان في منتهى الجد، فكم من المرات رأيته ينطوي على نفسه كلما ترامي إلينا صوت الصحفيين الأمريكيين المزعج وهم يتحاورون في الشرفة وهي الشرفة التي كان يظن أنها بعيدة عن مدى القنابل اليدوية ولكني لم أسمعه ينتقد أحدًا.

وسألني مرة:

– هل قرأت شيئًا للكاتب «يورك هاردنج»؟

– لا .. لا أظن أني قرأت له شيئًا. في أي موضوع يكتب؟

فحدق بالنظر إلى محل للألبان عبر الشارع وقال وكأنه يحلم:

– إن هذا المحل يصلح كمحل جميل لبيع ماء الصودا.

وتعجبت.. أي نوع عميق من الحنين للوطن يكمن وراء اختياره الغريب لملاحظة منظر غير مألوف ليذكره بالوطن؟ ولكن ألم ألاحظ أنا في أثناء سيري في الشارع لأول مرة في سايجون ذلك المحل الذي يبيع الروائح العطرية ويذكرني بوطني وعزيت نفسي وقتئذ بأن أوربا لا تبعد عني سوى ثلاثين ساعة بالطائرة؟ ونظر بيل بعيدًا عن محل اللبن وقال:

– إن بورك كتب كتابًا إسمه «تقدم الصين الشيوعية» وإنه لكتاب عميق جدًا.

– أنا لم أقرأه.. هل تعرف يورك؟

فهز رأسه بتؤدة وقال:

– نعم..

وظل صامتًا ولكنه قطع صمته بعد قليل لكي يغير التأثير الذي عناه:

– إنني لا أعرفه جيدًا. وأعتقد أني قابلته مرتين.

وقد إرتحت إليه لذلك حيث إنه لم يتخذ من معرفته للكاتب مادة يفخر بها.وعلمت فيما بعد أنه يكن إحترامًا كبيرًا للكاتب الذي يتناول الموضوعات الجدية وفي رأيه أن الموضوعات الجدية لا تشمل كتب القصص أو الشعر أو كتابة المسرحيات ما لم تكن هذه تتناول أفكارًا معاصرة تشعل الأذهان في العالم، وقلت له:

– أنت تعلم.. أنك لو عشت في مكان مدة طويلة فإنك لا تهتم بقراءة ما كتب عنه.

قال:

– إني بالطبع أحب أن أعرف ماذا يقول الرجل الذي يعيش في دوامة الأحداث.

فقلت له:

– ثم تعود فتقارن ما يقول بكتابات يورك.

وقال وكأنما لاحظ تهكمي:

ولكنه أضاف بطريقته المهذبة:

– إني أعتبرها منة كبيرة منك لو كان لديك الوقت لكي تعطيني صورة عن النقط الهامة، فأنت تعلم أن يورك كان مقيمًا هنا منذ سنتين.

وأحببت فيه إخلاصه ليورك مهما كان يورك هذا. فقد كان بيل صورة مغايرة للمحيطين بي من رجال الصحافة وافتقارهم الذي ينم عن البعد عن النضوج.

ثم بدأت أشرح له المواقف في الشمال –في تونكين– حيث كان الفرنسيون في تلك الأيام يتشبثون بدلتا النهر الأحمر التي الشمل هانوي والميناء الشمالي الوحيد في الهند الصينية، حيث ينمو مسلم الأرز وعندما يتضح تبتدئ: «عادة» المعركة السنوية.. وقلت:

– هذا هو الشمال، وقد يستطيع الفرنسيون البقاء فيه، وذلك ما لم تتقدم الصين لمساعدة الفيتناميين وإنهاء حرب الغابات والجبال والمستنقعات ومزارع الأرز حيث تخوض الماء إلى كتفيك ويختفي الأعداء «ببساطة» ويدفنون أسلحتهم ويرتدون ملابس الفلاحين، وتستطيع أن تسميها حربًا نظمية.

فقال:

– وكيف الحال هنا في الجنوب؟

فقلت:

– إن الفرنسيون يسيطرون على الطرق حتى الساعة السابعة مساء، ثم يسيطرون على أبراج المراقبة بعد ذلك، وكذلك بالنسبة للمدن إلى حد ما وليس معنى ذلك أنك في أمان وإلا فلماذا وضعوا الشباك الحديدية أمام المطاعم.

وقد شرحت هذا مرات للقادمين الجدد للمدينة من أعضاء البرلمان والوزير البريطاني الجديد ثم قلت:

– والآن.. هناك الجنرال ثي الذي كان رئيسًا لأركان حرب جيش الكاوديست ولكنه إلتجأ إلى الغابات ليحارب «الفرنسيين والشيوعيين».

فقال بيل:

– إن يورك كتب يقول:

«إن ما يحتاج إليه الشرق الأقصى هو قوة ثالثة» وكان من المتوقع أن أسمع منه هذه الآراء المتطرفة، والميل إلى سحر ما بذكر مثل الطابور الخامس والقوة الثالثة واليوم السابع، وكان في استطاعتي أن أوفر على نفسي وعلينا جميعًا الكثير من المتاعب وعلى الأخص بالنسبة لبيل لو كنت قد كشفت عن إتجاهات عقله غير الناضج – ولكني تركته بهذه الحقائق العارية – وذهبت أتمشى في شارع الكاتينات «كعادتي» فيجب أن يتعلم هو نفسه حقيقة الأوضاع في البلاد التي تسيطر على المقيم فيها مثلما تسيطر على عقله رائحة شيء ما، فحقول الأرز الذهبية تحت أشعة الشمس الغاربة وأكواب الشاي على منضدة كاهن عجوز وسريره تعلوه نتيجة يومية، وأوعيته وآنيته المحطمة وخبرة حياة طويلة ومنظر القبعات التي ترتديها الفتيات اللواتي يصلحن الطريق الذي إنفجر فيه أحد الألغام، وأزياء الجنوب الذهبية والخضراء الزاهية وفي الشمال حيث تجد الألوان البنية القاتمة والملابس السوداء والجبال التي تقوم كداثرة حول الشمال. كل ذلك مناظر تترك في النفس أثرها.

وعندما وصلت إلى سايجون كنت أحسب الأيام التي تمر عليَ فيها مثلي مثل الطالب عندما يعبر أيام الدراسة إنتظارًا للإجازة، وكنت أعتقد أنني مرتبط بلندن المكان الذي ولدت وعشت فيه. أما الآن فما عدت أهتم بل أصبحت مرتبطًا إرتباطًا أشد بأبناء هذه البلاد وأحوال أهلها وفونجج ومسكني ودرت حول منزل المندوب السامي الفرنسي حيث يقف رجال الفرقة الأجنبية يحرسونها في حلاتهم البيضاء وشاراتهم الحمراء وعبرت الشارع أمام الكاتدرائية وعد متخذاً طريقي بجوار دار البوليس الفيتنامية وكان هذا جزءًا من الوطن الثاني، وكانت الصحف المطبوعة حديثًا قد عرضت على المناضد على طول الشاطئ والبحارة يتناولون البيرة على الرصيف وهم بذلك يكونون هدفًا سهلًا للقنابل اليدوية، وفكرت في فونجج التي تكون مشغولة في مثل هذه الساعة بالمساومة على ثمن السمك في الشارع الثالث على اليسار قبل ذهابها إلى محل الألبان ونسيت بيل بسهولة. ولم أذكر حتى إسمه لفونجج ونحن جالسان للغداء في غرفتي المطلة على شارع كاتينات وهي ترتدي خير ملابسها إحتفالًا بذكرى مرور سنتين على تعارفنا.

وفي صبيحة موته لم يذكره أحدنا عندما إستيقظنا من النوم، ولقد إستيقظت فونجج قبلي وأعدت الشاي، والمرء لا تعتريه الغيرة من الموتى وسهل عليَ بذلك أن أعاود الحياة معها كما كنا قبلًا، وسألت فونجج بصوت حاولت أن أجعله طبيعيًا ونحن نفطر:

– هل ستبقين هنا الليلة؟

– إني سوف أكون في حاجة إلى إحضار حقيبة ملابسي.

– قد يكون البوليس في انتظارك هناك عند بيل. ويحسن أن آتي معك.

وكان هذا أول مرة يرد فيها ذكر بيل.

وكان بيل يسكن شقة في «فيللا» حديثة بشارع «ديورانتين» تقوم على أحد الشوارع الرئيسية التي يشغلها الفرنسيون ويطلقون عليها أسماء قوادهم. وقد غيروا إسم شارع ديجول بإسم شارع ليكليرك بعد الإنقلاب الثالث في فرنسا وقد يغيرون هذا الشارع مرة أخرى بإسم دي لاترتاسيتي. ولاحظت أنه يوجد رجل بوليس يواجه «الرصيف» كل عشرين ياردة على طول الطريق المؤدي إلى بيت المندوب السامي، فلابد أن هناك شخصًا ذا أهمية سوف يصل من أوربا بالطائرة وأمام منزل بيل كان هناك عديد من رجال البوليس راكبي الموتوسيكلات، وقد أوقفني أحد رجال البوليس من أهل فيتنام وفحص بطاقتي الصحفية ولم يسمح لفونجج بالدخول فدخلت وذهبت إلى ضابط البوليس. وفي حجرة بيل وجدت فيجو يغسل يديه بصابونة ويمسح يديه في «فوطته» وكانت حلته قد لوثتها بقعة من الزيت أعتقد أنه من زيت بيل. وسألته:

– هل من أخبار؟

– وجدنا سيارته في الجاراج – وكانت خالية من الوقود – فلابد أنه

خرج واستأجر عربة، أو في سيارة شخص آخر، وقد يكون الوقود قد أُفرغ من السيارة.

– قد يكون ذهب سائرًا على قدميه.. أنت تعرف هؤلاء الأمريكيين.

فقال وهو يفكر:

– إن سيارتك قد أُحرقت.. أليس كذلك؟ وليس لديك سيارة جديدة.

– نعم..

– إنها ملاحظة غير هامة.

– أبدًا.

– هل لديك أية فكرة؟

فقلت له:

– كثير من الأفكار.

– أذكر لي.

– حسنًا وقد يكون قد قُتل «بواسطة» رجال الكاوديست لأنه يعرف الجنرال ثي.

– هل يعرفه؟

– إنهم يقولون ذلك، وقد يكون الجنرال ثي قد قتله لأنه يعرف الكاوديست وقد يكون قد قتل الهاوهاو لأنه غازل عشيقات الجنرال أو

قد يكون قد قتله شخص يريد الإستيلاء على نقوده. فقال فيجو:

– وقد يكون لسبب «بسيط» وهو الغيرة.

فقلت متابعًا:

– وقد يكون قد قتله رجال البوليس الفرنسي لأنهم لا يحبون الاتصالات التي يقوم بها. هل تبحث حقيقةً عن الرجال الذين قتلوه؟

فقال:

– لا.. إنني فحسب أدون مذكرة وهذا كل ما في الأمر، لأن المسألة من أفعال الحب، وهنالك آلاف يقتلون كل سنة.

قلت:

– تستطيع أن تستبعدني، فأنا لم أشترك في قتله، لم أشترك قط، فأنا بطبيعتي سلبي، وحيث أن الأحوال الإنسانية على ما هي عليه فندعهم يتصارعون أو يحبون أو يقتلون فأنا لا أندمج في هذا المعترك. وزملائي من الصحفيين يسمون أنفسهم مراسلين ولكني أفضل لقب مخبر صحفي فأنا أكتب ما أراه ولا أتخذ أية حركة.

وقال فيجو:

– ماذا تفعل هنا؟

– لقد جئت من أجل حاجات فونجج، ورجالك لم يسمحوا لها الدخول.

– دعنا نذهب لنبحث عنها.

– إن هذا جميل منك يا فيجو.

وكانت شقة بيل محتوية على غرفتين ومطبخ وحمام، وتوجهنا إلى حجرة النوم وكنت أعرف أين تضع فونجج حقيبتها تحت السرير، وسحبناها معًا وكانت تحتوي على «ألبومات» صورها، وأخذت ملابسها القليلة من «الدولاب»: روبين وبنطلون، والمرء يشعر بأن هذه الملابس لا تنتمي إلى هذا المكان وإنها لم تمكث فيه سوى ساعات، وفي أحد الأدراج وجدت سراويلها الثلاثة ومجموعتها من الإيشاربات وكانت الملابس كلها قليلة لا تزيد على ما يحمله المرء في عطلة الأسبوع، وفي غرفة الجلوس كانت هناك صورة لها مع بيل، والصورة مأخوذة في حديقة النباتات بجوار تمثال حجري كبير لتنين، وكانت تمسك في الصورة بحبل متصل بكلب بيل وهو كلب أسود ذو لسان قاتم – ووضعت الصورة في الحقيبة وسألت:

– ماذا حدث للكلب؟.

– إنه ليس هنا. ربما أخذه معه.

– قد يعود الكلب وتستطيع تحليل ما على أقدامه من التربة.

فقال:

– إنني لست بوليسًا سريًا حاذقًا.

وتوجهت ناحية مكتبة بيل وتصفحت الكتب التي بها. ووجدت

الكتب التالية: «تقدم الصين الشيوعية»، «تحدي الديمقراطية»، «مسئولية الغرب». وهذه الكتب كما أعتقد هي مؤلفات «يورك هاردنج» وإلى جانب ذلك عديد من نشرات الكونجرس وكتاب لتعلم اللغة الفيتنامية وتاريخ الحرب في الفلبين ومؤلفات شكسبير وتساءلت: «أي شيء كان يقرأ بيل لإراحة أعصابه إلى جانب هذه المؤلفات الجامدة؟».

ووجدت كتب قراءة خفيفة على رف آخر: كتاب عن حياة توماس ولف ومجموعة من القصائد اسمها «إنتصار الحياة» ومختارات من الشعر الأمريكي. وكان هناك كذلك كتاب عن الشطرنج وكان هذا كله لا يعد شيئًا يحتاج الإنسان إليه بعد عمل النهار. ولكن كانت هناك فونجج. وخلف كتاب الشعر وجدت كتابًا عنوانه "سيكولوجية الزواج"، كان بيل ممن يؤمنون بضرورة الإندماج والإشتراك في الحياة. أما مكتبه فكان عاريًا. وقلت لفيجو:

– لقد نظفت المكتب تمامًا.

– آه.. كان لابد من التحفظ على أوراقه من أجل المفوضية الأمريكية وأنت تعلم كيف تنتشر الشائعات بسرعة. وربما فكر أحدهم في الإستيلاء عليها وقد ختمتها.

قال ذلك بكل وقار دون أن يبتسم.

– هل وجدت شيئًا خطيرًا؟

– إنك لا تستطيع أن تنسب أمورًا خطيرة لحليف.

– هل تمانع إذا أخذت أحد هذه الكتب من أجل الذكرى؟

فقال فيجو:

– سوف أنظر إلى الناحية الأخرى كأني لم أرك.

وإخترت كتاب يورك هاردنج "مسئولية الغرب" ووضعته في الحقيبة مع ملابس فونجج. وقال فيجو:

– ألا تستطيع أن تذكر شيئًا كصديق؟ ألم يقل لك شيئًا آخر مرة رأيته.

– نعم..

– متى كان ذلك؟

– صباح أمس بعد الإنفجار الكبير.

وسكت حتى تتضح معنى إجابتي لعقلي أنا لا لعقله هو.. ثم سألني:

– هل كنت بالخارج مساء أمس عندما مر عليك؟

– مر عليَ أمس؟ ربما كنت بالخارج. وأنا لا أعتقد ذلك.

– ربما تحتاج إلى تأشيرة خروج. وأنت تعلم أننا نستطيع أن نؤخر إعطاءك إياها.

فقلت له:

– هل تعتقد حقيقة أنني أريد العودة إلى وطني؟

ونظر فيجو من خلال النافذة إلى الليل الذي أخذ يزحف على النهار وقال بأسى:

– معظم الناس يعودون لوطنهم.

فقلت:

– إني أحب هنا. وفي الوطن توجد مشاكل.

وقال فيجو:

– ها هوذا ميرد.. الملحق الاقتصادي الأمريكي.

– يحسن أن أذهب فربما فكر في إقحامي أنا كذلك.

فقال فيجو بتعب:

– أتمنى لك حظًا سعيدًا. فإن للملحق مزعجات كثيرة يريد أن يقولها لي.

وكان الملحق الإقتصادي واقفًا بجوار سيارته الباكار عندما خرجت، وهو يحاول إيضاح شيء للسائق، وهو رجل ممتلئ في منتصف العمر ووجهه يلوح وكأنما لا يحتاج صاحبه إلى حلاقته وناداني قائلًا:

– فولر.. هل تستطيع أن تشرح لهذا السائق الملعون؟

وشرحت للسائق ما أراد ثم قال:

– إن هذا هو ما أردت شرحه له ولكنه يدعي دائمًا أنه لا يعرف الفرنسية.

– ربما كانت المسألة مسألة لكنة في نطق اللغة.

– لقد قضيت ثلاث سنوات في باريس. وإن لهجتي كافية جدًا بالنسبة لهؤلاء الذين من أهل فيتنام.

فقلت له:

– أهذا صوت الديمقراطية.

– ماذا تقصد؟

– إني أعتقد أن هذا كتاب من تأليف «يورك هاردنج».

– إني لا أفهمك.

ونظر بشك إلى الحقيبة التي أحملها وقال:

– ماذا تحمل في هذه الحقيبة؟

فقلت له:

– زوجين من السراويل الحريرية البيضاء، وروبين من الأرواب الحريرية، وبعض الملابس الداخلية لإحدى الفتيات – ثلاثة أزواج منها كلها إنتاج محلي – وليس فيها شيء من المعونة الأمريكية.

– هل كنت بأعلى في الشقة؟

– نعم..

– هل سمعت الأخبار؟

– نعم..

– إنه لشيء فظيع.. فظيع وأعتقد أن الوزير المفوض في غاية «الإنشغال» وأعتقد أنه الآن مع المندوب السامي الفرنسي وسوف يطلب مقابلة رئيس الجمهورية.

ووضع يده عليَ، وسألني وقادني بعيدًا عن السيارة وقال:

– إنك تعرف بيل جيدًا فأنا أعرف والده «البروفسور هارولد».

فقلت:

– من بيل؟

قال:

– لا شك أنك سمعت عنه.

– لا..

– إنه حجة عالمي في الأبحاث المائية. ألم تر صورته على غلاف مجلة «تايم» في الشهر الماضي؟

– بلى.. أظن أني أتذكر ذلك. صورة بيل منهار في مؤخرة الصورة ورجل يلبس منظارًا مذهب الإطار في المقدمة.

– إنه هو.. وكان عليَ أن أرسل له برقية في الوطن. وذلك شيء مزعج لأني كنت أحب هذا الشاب كإبني.

– إن هذا يجعلك شديد الصلة بأبيه.

فنظر لي بعينيه المبللتين بالدموع وقال:

– ما الذي يقلقك؟ إن هذه ليست بطريقة الكلام عندما يموت شاب خير.

– إني لآسف. إن الموت يؤثر في الناس بصور مختلفة. ماذا كتبت في برقيتك؟

فأجاب بتؤدة ووقار:

– إني لمحزون أن أنعي وفاة إبنك وفاة جندي مخلص وقد وقعه الوزير المفوض.

فقلت:

– موت جندي. أليس ذلك يدعو إلى الحيرة؟

– إني أقصد بالنسبة لأهله في الوطن.

– إن البعثة الإقتصادية ليست هي الجيش. هل تحصلون على وسام القلب القرمزي فيها؟

فقال بصوت منخفض:

– لقد كان له مهمات خاصة.

فقلت:

– آه. لقد كنا جميعًا نعتقد ذلك.

– إنه لم يبح بشيء. هل تكلم عن شيء؟

– آه – كلا – لقد كان أمريكيًا هادئًا جدًا. وهي عبارة فيجو.

– هل لديك فكرة. لماذا قتلوه؟ ومن الذي قتله؟

وفجأة أحسست بالغضب، فقد سئمتهم جميعًا. بمخزونهم الخاص من الكوكاكولا ومستشفياتهم المتنقلة وسياراتهم وبنادقهم غير الحديثة جدًا وقلت:

–نعم. لقد قتلوه لأنه كان ساذجًا جدًا لأنه كان شابًا. وجاهلًا وسخيفًا. ولأنه جعل نفسه يدخل في دوامة، ولم يكن لديه أية فكرة عما يدور ويحدث وقد أعطيتموه نقودًا، وكتب يورك هاردنج وقلتم له: هيا – إلى الأمام إكسب لنا الشرق. وعندما كان يرى قتيلًا كان لا يستطيع حتى رؤية الجروح. لقد كان مزعجًا.

فقال بصوت عتاب:

– إني كنت أعتقد أنك صديقه.

– لقد كنت صديقه. وكنت أفضل أن أراه جالسًا في وطنه يقرأ

جرائد الأحد ويتتبع أخبار البسبول، وكنت أحب أن أراه سالمًا مع فتاة أمريكية من أوساط الناس تنتمي إلى نادي الكتب.

فتنحنح وقال:

– بالطبع لقد نسيت هذه المهمة السيئة الحظ، إنني أوافقك يا فولر. لقد سلك سلوكًا سيئًا جيدًا، وأنا لا اكتم عنك أني تكلمت معه طويلًا عن مهمته فأنت ترى أنني كنت أعرف أباه وأمه.

فقلت له:

– إن فيجو ينتظر.

وتركته وسرت ولاحظ فونجج لأول مرة وعندما نظرت إليه وجدته يرقبني بألم ممزوج بالإمتعاض كان أخ أكبر لا يستطيع أن يفهم الموقف.

الفصل الثالث

كان بيل قد دعا نفسه إلى ما أسماه كأسًا. ولكني أعرف جيدًا أنه لا يشرب حقيقة وخطر لي أنه يحاول أن يجعلني أنزلق وأن الحديث كان سخرية وملهاة مقنعة بالنسبة لغرضه الحقيقي، حيث أن الشائعات في سايجون تشير إلى أنه يعمل في مهمة سرية، وربما كان يعد العدة لتزويد «قوة ثالثة» بالسلاح الأمريكي، وربما كانت هذه القوة هي فرقة الأسقف الموسيقية وهي كل ما تبقى له من جنوده الذين لا يدفع لهم أجورهم وكان التلغراف الذي وصل إليَ في هانوي قد احتفظت به في جيبي ولم أجد مصلحة في إبلاغ فونجج لأن ذلك سيؤدي إلى إفساد الأشهر القليلة الباقية بالبكاء والمنازعات ونويت ألا أذهب للحصول على تأشيرة الخروج إلا في آخر لحظة ممكنة خشية أن يكون لها قريب في إدارة الهجرة وقلت لها: «إن بيل سيأتي في السادسة» فقالت:

– سأذهب لمقابلة أختي.

– إنني أعتقد أنه يرغب في رؤيتك.

– إنه لا يحبني ولا يحب عائلتي، فعندما كنت مسافرة لم يحضر مرة واحدة لرؤية أختي برغم أنها كانت قد دعته لزيارتها وقد آلامها ذلك جدًا.

– إنك لست في حاجة إلى الخروج.

– لو كان يريد أن يراني لكان عليه أن يدعونا إلى فندق ماجستك. إنه يريد أن يتكلم معك على انفراد بخصوص العمل.

– وما هو عمله؟

– الناس يقولون: إنه يستورد أشياء كثيرة.

– أي نوع من الأشياء؟

– أدوية ومستحضرات طبية.

– إن هذه الأشياء لوحدة مكافحة التراخوما في الشمال والجمارك لا تطلع على محتويات الطرود، لأنها طرود ديبلوماسية ولكن حدث مرة غلطة إذ فتحها رجل من الجمارك وقد فصل الرجل لذلك. وهدد السكرتير الأول بالمفوضية الأمريكية بوقف كل الواردات.

– وماذا كان في الطرد؟

– بلاستيك.

وقلت بكسل:

– ولماذا يريدون البلاستيك؟

وعندما رحلت فونجج كتبت إلى إنجلترا، وكان أحد مراسلي رويتر مسافرًا إلى هونج كونج بعد أيام ويستطيع أن يرسل خطابي من هناك، وكنت أعلم أن اعتراضي لا أمل في نجاحه، ولكني لم أكن أريد أن ألوم

نفسي لعدم إتخاذي كل وسيلة ممكنة لإلغاء النقل. وكتبت إلى رئيس التحرير أن هذا الوقت غير مناسب لتغيير مراسلهم، فالجنرال لا تردي تاسني كان على شفا الموت في باريس والفرنسيون على وشك الانسحاب من (هوى بنه) والشمال لم يكن في يوم من الأيام في خطر مماثل – وأنا لست صالحًا لكي أكون محررًا للشئون الخارجية فما أنا إلا مراقب للحوادث وليس لي رأي صريح في الأمور، وفي الصفحة الأخيرة طلبت منه على أساس المصلحة الشخصية ألا يصر على نقلي برغم علمي أن العاطفة الإنسانية أن يكون لها أثر عند أولئك المديرين للجريدة الجالسين أمام مكاتبهم في لندن وأنهم يضعون مصلحة الجريدة – والموقف يتطلب ذلك – أمام كل اعتبار فردي. وكتبت له أقول «لأسباب شخصية أعتبر نفسي غير سعيد بالمرة لنقلي من فيتنام، وأنا لا أعتقد أني سوف أقوم بعملي على خير ما يرام في إنجلترا حيث توجد المشاكل المالية والمشاكل العائلية ولو كان في استطاعتي من الناحية المالية أن أستقيل لفضلت ذلك على العودة إلى المملكة المتحدة. وأنا أذكر ذلك لإظهار قوة معارضتي للنقل.

ولا أعتقد أنكم وجدتموني مراسلًا غير ناجح وهذه هي أول خدمة أطلبها منكم ثم نظرت إلى مقالي عن معركة «فات ديم» حتى أستطيع أن أرسله من هونج كونج ولا يستطيع الفرنسيون أن يحتجوا الآن، فقد رفع الحصار ومن الممكن تصوير الهزيمة على أنها انتصار ثم مزقت الصفحة الأخيرة من كتابتي إلى رئيس التحرير لعلمي بعدم جدواها «فالأسباب

الشخصية» سوف تكون موضع سخرية خبيثة، فالمعروف أن كل مراسل أجنبي له عشيقته من أهل البلاد وسوف يتخذ رئيس التحرير من ذلك مادة للسخرية مع سكرتير التحرير الذي سيحمل القصة معه إلى منزله حيث يقيم في «فيللا»، فالأسباب الشخصية سوف تكون موضع سخرية خبيثة منذ تعرفه عليها في «جلانجو» وكنت أستطيع أن أتخيل صورة المنزل الذي لا تعرف الرحمة سبيلًا إلى قلب أصحابه. فالأسباب الشخصية يمكن أن تكون محلًا لسخرية أنا في غنى عنها.

وقرع الباب ففتحته ووجدت بيل وكلبه الأسود يتقدمه ونظر بيل من فوق كتفي ووجد الغرفة خالية وقلت:

– أنا بمفردي وفونجج مع أختها.

وتضرج وجهه ولاحظت أنه قد ارتدى قميصًا «مشجرًا» من أقمصة هاواي برغم أنه كان قميص متحفظ بعض الشيء في لونه وتصميمه، ودهشت. هل أفهموه أن له نشاطًا معاديًا لأمريكا؟ «لا. بالطبع.» وقلت له:

– هل لك في كأس؟

– شكرًا.. قدح من البيرة.

– آسف.. ليس لدينا ثلاجة لقد أرسلنا في طلب الثلج .. ما رأيك في كأس من الويسكي؟.

–كأس صغيرة إن لم يكن مانع. فأنا لست متعودًا المشروبات القوية.

– بالثلج.

– مع كثير من الصودا إن لم تكن تشكو من قلتها.

وقلت:

– أنا لم أرك منذ مقابلتنا في «فات ديم».

– ألم يصلك خطابي يا توماس؟

وكان عندما يستخدم إسمي المسيحي فهذا معناه إعلان منه أنه ليس في روح طيبة وأنه ليس لديه ما يخفيه. وأنه هنا لكي يستحوذ على فونجج. ولاحظت أن حلاقة شعره قد تغيرت، وقلت له:

– لقد تسلمت خطابك وأعتقد أنه من المفروض أن أطرحك أرضًا.

فقال:

– بالطبع، فلديك كل الحق يا توماس. ولكني كنت ملاكمًا في الكلية وأنا أكثر منك شبابًا بكثير.

– إنها لن تكون حركة ناجحة مني أليس كذلك؟

– أنت تعلم يا توماس. وأنا أعتقد أنك تشعر بالشعور نفسه. إنني لا أحب مناقشة مسألة فونجج بغير حضورها. وأعتقد أنه يجب أن تكون موجودة.

– حسنًا. إذن ما الذي سوف تناقشه.. البلاستيك؟

ولم أكن أقصد مفاجأته. وقال:

– هل تعرف ذلك؟

– لقد قالت لي فونجج.

– يمكنك أن تتأكد أن هذا معروف في المدينة كلها. وما أهمية ذلك؟ هل تنتوي الدخول في تجارة لعب الأطفال؟ نحن لا نحب أن نعرف تفاصيل المعونة التي ترسلها، وأنت تعرف أحوال الكونجرس، هذا بالإضافة إلى الزيارات التي يقوم بها أعضاء مجلس الشيوخ، ولدينا كثير من المتاعب بخصوص فرقة مكافحة التراخوما لأنهم كانوا يستخدمون نوعًا من الدواء بدلًا من نوع آخر.

فقلت له:

– ومع ذلك فمازلت لا أفهم مسألة البلاستيك.

وجلس كلبه على الأرض ناظرًا إلى محتويات الغرفة وهو يلهث ولسانه يبدو كأنه «كعكة مشوية» وقال بيل:

– أوه. أنت تعلم إننا نريد أن نساعد الصناعات المحلية على الوقوف على قدميها، وعلينا أن نكون حذرين من ناحية الفرنسيين فهم يريدون أن نشتري كل شيء من فرنسا.

– أنا لا ألومهم. فالإنفاق على الحرب يحتاج إلى أموال.

فقال:

– هل تحب الكلاب؟

فقلت:

– لا.

– كنت أعتقد أن البريطانيين من المحبين الكبار للكلاب.

– نحن كذلك تعتقد أن الأمريكان محبون للدولار، ولكن هناك بعض الشواذ عن القاعدة.

– إني لا أعرف كيف يمكن أن أكون بدون الكلب «ديوك» فأنت تعرف أني أشعر أحيانًا بوحدة قاتلة.

– إنك لديك الكثير من الرفقاء في الفرع الذي تعمل فيه.

– إن أول كلب ملكته كان يسمى «برنس» وسميته باسم «الأمير الأسود». أنت تعرفه. إنه ذلك الأمير...

فقاطعته قائلًا:

– الذي نقل كل النساء والأطفال إلى «ليموج».

– أنا لا أذكر ذلك.

– إن كتب التاريخ قد ذكرتها.

ورأيت كثيرًا من المرات هذه النظرة المتأملة المملوءة بخيبة الأمل

تلمس عينيه عندما لا تتفق الحقيقة أو تتماشى مع المثل الرومانتيكية التي يتمسك بها، وعندما ينزل شخص بحبه إلى مستوى أقل من المستوى الذي وضعه هو فيه. وتذكرت إنني قد عرفت «ليورك هاردنج» غلطة كبيرة عن حقيقة من الحقائق وتألم بيل وكان عليَ أن أعزيه وقلت له حينئذ: «إن من طبيعة البشر أن يخطئوا» فضحك بعصبية وقال: «ربما تفكر في أني مغفل ولكن لقد كنت أظن أنه غير عرضة للخطأ. ولقد أحبه أبي كثيرًا من المدة الأولى التي قابله فيها وأبي من الناس الذين يصعب إرضاؤهم».

وكان الكلب الأسود الكبير المسمى «ديوك» قد وجد أنه لهث ليتعود جو الغرفة وأخذ يعبث فيها وقلت لبيل: «هل لك أن تدعو كلبك إلى السكون؟» فقال: «أوه. أنا آسف جدًا. ديوك. ديوك .. إجلس هادئًا .. ديوك» وجلس ديوك وأخذ يلحس جسمه بصوت مسموع، وملأت الكئوس وتعمدت في أثناء مروري أن أضايق الكلب وسكت الكلب ولكن لمدة «بسيطة» فقد أخذ يحك جلده وقال بيل: «إن ديوك في غاية الذكاء».

– وما الذي حدث لبرنس؟

– لقد دهمته سيارة.

– هل تألمت؟

– أوه. لقد حزنت كثيرًا. فإنه كان يعني شيئًا أكثر بالنسبة لي ولكن على المرء أن يكون عاقلًافما من شيء يمكنه إرجاعه.

– ولو فقدت فونجج هل تكون عاقلًا؟

– أوه. نعم أرجو ذلك وأنت؟

– إني أشك في ذلك – ربما أصبح مجنونًا – هل فكرت في ذلك يا بيل؟

– كنت أتمنى أن تناديني «الدن» يا «توماس».

– لا. أفضل ألا أناديك بذلك الإسم، فإن الإسم «بيل» له معنى خاص. هل فكرت في الأمر؟

– بالطبع أنا لم أفكر في فقدها. وأنك أحسن فرد مستقيم رأيته. وكلما تذكرت كيف سلكت عندما اقتحمت عليك الغرفة في...

– أنا أتذكر إنني كنت أفكر قبل أن أنام في تلك الليلة كم يكون الأمر مريحًا لو حدث هجوم وقتلت أنت فيه. فتموت ميتة بطل.

– لا تسخر مني يا توماس. أبدو لك غبيًا بعض الشيء ولكني أعرفك عندما تريد أن تمزح.

– أنا لا أمزح.

فقال:

– أنا أعرف أنك لو تجردت من عواطفك فإنك تريد لها الخير.

وهنا سمعت صوت خطوات فونجج، وكنت أتمنى أن يكون قد رحل

قبل أن تعود هي، وسمع صوت مشيتها وعرفها وقال:

- ها هي ذي.

برغم أنه لم يكن لديه سوى ليلة واحدة ليتعرف على طريقة خطوها، وحتى الكلب وقف إلى جوار الباب الذي تركته مفتوحًا لترطيب الجو، وكان الكلب قد «اعتبرها» واحدة من عائلة بيل وأنا شخص متطفل وقالت فونجج:

- إن أختي لم أجدها.

ونظرت إلى بيل بتحفظ، وتعجبت هل هي تذكر الحقيقة أو أن أختها طلبت منها العودة بسرعة؟

وقلت:

- هل تذكرين مستر بيل؟

فقالت بأدب:

- لي الشرف.

وقال لها ووجهه يتضرج بالحمرة:

- أنا في غاية السرور لرؤيتك ثانية.

فقالت:

- ماذا يقول؟

فقلت:

– إن لغتها الإنجليزية ليست جيدة.

فقال بيل:

– أنا أخشى أن تكون فرنسيتي أكثر ضعفًا، وأنا أدرس الآن وسوف أفهم لو أن مس فونجج تكلمت ببطء.

– سوف أعمل كمترجم. فإن اللهجة المحلية تحتاج إلى وقت لفهمها والآن ماذا تريد أن تقول؟ إجلس يا فونجج. إن مستر بيل قد حضر «خصيصًا» لرؤيتك. هل أنت متأكد يا بيل أنك لا تريد أن أخرج وأترككما معًا.

فقال:

– أنا أريد أن تسمع كل ما سوف أقوله. وإلا لم يكن ذلك عدلًا.

– حسنًا هات ما عندك.

وقال بوقار كأنه قد تمرن على قول ما يقوله إنه يحب ويحترم فونجج كثيرًا، وأنه شعر بذلك من تلك الليلة التي رقص فيها معها، وترجمت أقواله بعناية وجلست فونجج ساكنة ويداها في حجرها كما لو كانت تستمع إلى رواية في السينما، وقال بيل:

– هل فهمت هي ما قلته؟

– بقدر ما أعرف. هل تحب أن أضيف شيئًا من الحرارة إلى حديثك.

– أوه. لا. ترجم فحسب أنا لا أريد أن أجذب حبها عن طريق العاطفة.

– أفهم ما تقول.

فقال:

– قل لها إني أريد أن أتزوجها.

وقلت لها ذلك فقال:

– وماذا قالت؟

– قالت: هل أنت جاد في طلبك؟ فقلت لها: إنك من الصنف الجاد.

فقال:

– أعتقد أن هذا موقف محرج. أن أطلب منك بالذات أن تترجم.

– نعم محرج.

– وأنت تبدو طبيعيًا، وعلى كل فأنت أحسن صديق لي.

– إنها لطيبة منك أن تقول ذلك.

– ليس هناك شخص أتوجه إليه في وقت المتاعب سواك. وأعتقد أن حبك للفتاة التي أعشقها هو نوع من المتاعب.

– بالطبع وكنت أتمنى أن يكون حبيبها شخصًا آخر سواك يا توماس.

– حسنًا. ماذا أقول لها بعد ذلك. هل أقول لها: إنك لا تستطيع العيش بدونها.

– لا. هذا كلام عاطفي جدًا. وهو ليس بصريح كذلك. حقيقة أنه عليَ، إن لم تتزوجني، أن أرحل بالطبع ولكن المرء يتعود التغلب على كل شيء.

فقلت له:

– هل من الممكن أن أقول كلمة بالنسبة لنفسي؟

قال:

– لا. بالطبع لا. إن هذا من العدل يا توماس.

وقلت:

– حسنًا يا فونجج هل تريدين أن تتركيني من أجله؟ إنه سوف يتزوجك وأنا لا أستطيع وأنت تعرفين السبب.

فقالت:

– هل أنت مسافر؟

وفكرت في خطاب رئيس التحرير في جيبي وقلت:

– لا.

– ألن تسافر أبدًا؟

– كيف يمكن أن يعد المرء بذلك؟ إن بيل نفسه لا يستطيع أن يعد بذلك والزواج قد تنفصم عراه بسرعة.

فقالت:

– انا لا أريد أن أتركك.

ولكن لهجتها لم تكن صريحة حيث إنها كانت تحمل معنى «ولكن..»
وقال بيل:

– إني أعتقد أنه علي أن أضع كل أوراقي على المائدة، فأنا لست غنيًا لكن عندما يموت أبي سأرث نحو خمسين ألف دولار. وأنا صحتي طيبة وقد كشف عليَ طبيب منذ شهرين. وسوف أطلعها على كشف ضغط الدم.

فقلت:

– أنا لا أعرف كيف أترجم هذا الكلام. وما الداعي له؟ هل هذه هي طريقة الحب في أمريكا. وأرقام دخلك، وعدد ضربات قلبك؟

قال:

– أنا لا أعرف – فلم يسبق لي أن تقدمت بمثل هذا العرض – ربما في الوطن كانت أمي تستشير أمها.

– تستشيرها عن عدد ضربات قلبك؟

قال:

– أتسخر مني يا توماس؟ أنا أعتقد أني «موضة» قديمة. وأنت تعرف أني ضائع في مثل هذا الموقف.

– وكذاك أنا. ألا تؤمن معي بعدم جدوى هذه المناقشة؟ ثم نرمي الزهر لبكسبها أحدنا. – الآن تدعي القوة يا توماس. وأنا أعلم أنك تحبها بطريقتك بمثل القوة التي أحبها أنا بها.

– حسنًا. واصل كلامك يا بيل.

– قل لها: إنني لا أتوقع منها أن تحبني على الفور. فسوف يأتي الحب بمرور الزمن بل قل لها: إن ما أعرضه عليها هو الإحترام والأمان. إن هذا لا يبدو مثيرًا. ولكنه ربما كان أحسن من العواطف.

فقلت:

– إنها تستطيع أن تحصل على العاطفة باستمرار وذلك مع سائقك عندما تذهب إلى المكتب.

وتضرج وجهه، ووقف بصعوبة على قدميه وقال:

– هذه نكتة قذرة ولا أحب أن تهان فونجج وليس لك الحق...

– إنها ليست زوجتك بعد. فلماذا تغضب؟ ماذا تستطيع أن تقدمه لها. مائتي دولار عندما تتركها وتسافر إلى انجلترا أو هل ستبيعها مع الأثاث؟

– إن الأثاث ليس ملكي.

قال:

– وكذلك هي.. فونجج هل تتزوجينني؟

– وماذا عن ضغط الدم وشهادة الفحص الطبي، وسوف تحتاج إلى شهادة لها بذلك. وقد تحتاج إلى شهادة خاصة لي وكذلك سوف تحتاج إلى شهادة بحسن طالعها. كلا فإن هذه عادة هندية.

– هل تتزوجيني؟

فقلت.

– قل لها بالفرنسية. فإني ملعون لو ترجمت لك بعد ذلك. ووقفت على قدمي فزمجر الكلب وقد جعلني ذلك غضوبًا. وقلت له:

– أطلب من كلبك الملعون أن يسكت. إن هذا هو بيتي وليس بيته.

فكرر سؤاله لها:

– هل تتزوجينني؟

وخطوت خطوة نحو فونجج وزمجر الكلب ثانية وقلت لفونجج:

– قولي له لابد أن يذهب ويأخذ كلبه معه.

وقال بيل:

– تعالي معي الآن.

وقال بالفرنسية معي. فقالت فونجج:

– لا. لا..

وكانت المشكلة «بسيطة» يمكن حلها بكلمة من حرفين «لا» وشعرت براحة كبيرة ووقف بيل وفمه مفتوح قليلًا وعلى وجهه تعبير ينم عن الحيرة وقال:

لقد قالت «لا».

فقلت:

– إنها تعرف إلى ذلك الحد من الإنجليزية.

وأردت أن أضحك لقد جعلنا من أنفسنا مغفلين. وقلت:

– إجلس وتناول كأسًا أخرى يا بيل.

قال:

– أعتقد أنه عليَ أن أذهب.

– تناول كأسًا واحدة.

فتمتم:

– يجب ألا أشرب كل ما لديك من ويسكي.

– إني أحصل على كل ما أريده من المفوضية.

وسرت نحو المائدة فكشر الكلب عن أنيابه وقال بيل بغضب:

– إهدأ يا ديوك، كن مؤدبًا.

ومسح العرق الذي تصبب على جبهته وقال:

– إنني في غاية الأسف يا توماس لو كنت قلت كلامًا لم يكن لي أن أقوله فأنا لا أدري ما الذي حدث لي؟

وتناول الكأس وقال:

– إن الفائز هو الأحسن «فقط» أرجو ألا تتركها يا توماس.

وقلت له:

– بالطبع أنا لن أتركها.

وقالت لي فونجج:

– هل يحب أن يدخن الغليون؟

وسألته:

– هل تحب أن تدخن الغليون؟

– لا. أشكرك سأشرب تلك الكأس ثم أنصرف. وآسف بخصوص أن أقول لهما إني راحل..».

ديوك «فإنه هادئ بطبعه عادة».

– إبق حتى نتعشى معًا.

– أنا أفكر في أن أخلو بنفسي إن لم يكن لديك مانع.

وابتسم إبتسامة غير موثوق منها وقال:

– أعتقد أننا سلكنا سلوكًا غريبًا. وإني أتمنى أن تتزوجها يا توماس.

فقلت:

– هل تريد ذلك حقيقة؟

قال:

– نعم. منذ رأيت ذلك المنزل ذا الخمسمائة الفتاة فمن ذلك التاريخ وأنا خائف من أجلها.

وشرب كأس الويسكي الذي لم يعتده بسرعة غير ناظر إلى فونجج. وعندما ودعنا لم يلمس حتى يدها بل أحنى لها رأسه بطريقة فيها الخجل. ولاحظت كيف تابعته عيناها حتى الباب. وعندما اقتربت من المرآة لاحظت أن الزرار الأعلى من «البنطلون» في غير مكانه نتيجة لظهور «كرش» وفي خارج الباب قال بيل:

– إني أعد بأني لن أراها يا توماس. وأنت لن تجعل ما حدث يؤثر في الصداقة بيننا. وسوف أطلب النقل عندما أنهي خدمتي..

– ومتى يكون ذلك؟

– في حوالي سنتين.

وعدت إلى الغرفة وفكرت، "وما الفائدة؟. وكان أحرى بي أن اقول لهما إني راحل.."

وقالت فونجج:

– هل أعد لك الشراب؟

– نعم. بعد لحظة فسوف أكتب خطابًا.

وكان هو الخطاب الثاني الذي كان عليَ أن أكتبه في ذلك اليوم. ولم أمزق منه شيئًا – برغم يأسي من فائدته – فقد كتبت فيه ما يلي: «عزيزتي هيلين. إني عائد إلى إنجلترا في أبريل القادم لأشغل وظيفة المحرر الخارجي. وتستطيعين أن تتخيلي أني غير سعيد بهذا. فانجلترا بالنسبة لي هي رمز فشلي. وكنت أنوي أن يدوم زواجنا. وحتى يومنا هذا فإني غير واثق مما حدث فلقد حاول كلانا إصلاح الخطأ وأعتقد أن عدم نجاحنا يرجع إلى سوء خلقي وأنا أعرف كم أكون قاسيًا ورديئًا في سلوكي. والآن أعتقد أن أخلاقي قد تغيرت والسبب يرجع في ذلك إلى إقامتي في الشرق. وأخلاقي لم تتحسن وربما يرجع ذلك «ببساطة» إلى أني قد تقدمت في العمر خمس سنوات وفي نهاية العمر تبدو خمس سنوات كجزء مما سيكون عليه الباقي. ولقد كنت كريمة جدًا معي بل لم تلوميني مرة واحدة منذ انفصالنا. فهل أنتظر منك أن تكوني أكثر كرمًا. فأنا أعلم قبل زواجنا أنه لن يكون هناك طلاق. وقد قبلت المخاطرة وليس لدي ما أشكو منه وفي الوقت نفسه فإني أطلب منك ذلك الطلب الآن».

ونادت على فونجج من السرير قائلة إنها قد أعدت الطاولة الخاصة بأدوات الشراب وقلت لها:

– لحظة واحدة.

وتابعت كتابة الخطاب: «وكنت أستطيع أن أقول إن طلبي هذا من أجل مصلحة شخص آخر. وبذلك أجعله أكثر احترامًا ولكن الأمر ليس كذلك. وكنا قد تواعدنا أنا وأنت ألا يكذب بعضنا على بعض وأقول لك إني أحب فتاة حبًا جمًا. وقد عشنا معًا مدة سنتين. وكانت في منتهى الإخلاص لي. وأعتقد أني غير ضروري بالنسبة لها. فلو تركتها فإنها على ما أعتقد ستحزن حزنًا قليلًا ولكن لن تحدث مأساة. فسوف تتزوج شخصًا آخر ويكون لها عائلة. وهذه حماقة مني.. أن أقول لك ذلك. ولكن بما إنني كنت صادقًا معك حتى الآن فسوف تصدقينني عندما أقول لك: أن تركي لها بالنسبة لي سوف يكون «البداية» لموتي. وأنا لا أسألك أن تكوني عاقلة. فالمنطق والعقل كله في جانبك. ولا أسألك كذلك أن تكوني رحيمة فكلمة الرحمة كبيرة جدًا بالنسبة لظروفي وعلى كل فأنا لا أستحق الرحمة وأعتقد أن ما أطلبه منك أن تستشعري في قلبك المحبة وأن تتصرفي بسرعة قبل أن يكون لديك الوقت الكافي للتفكير. وأعلم أن ذلك ممكن وسهل عن طريق التليفونج أو عبر ثمانية آلاف ميل لو أنك أرسلت لي برقية تقولين فيها: «أني أوافق».

وعندما أنهيت خطابي كنت أشعر كما لو كنت قد قطعت مسافة

طويلة وكنت تحت «توتر» عنيف فاستلقيت على السرير على حين أخذت فونجج تعد الشراب وقلت لها:

– إنه شاب.

قالت:

– من؟

قلت:

– بيل.

– إن هذا ليس مهمًا إلى هذا الحد.

فقلت:

– إني أرغب في أن أتزوجك لو استطعت يا فونجج.

– أنا أعتقد ذلك. غير أن أختي لا تصدقك.

فقلت:

– لقد كتبت لزوجتي توًا خطابًا أسألها فيه الطلاق، ولم أطلب منها ذلك قبل الآن وهناك فرصة لدينا.

– فرصة كبيرة

– لا. إنها فرصة صغيرة.

– لا تهتم. اشرب.

وسألتها:

– هل كانت أختك موجودة بالمنزل حقيقة يا فونجج؟

فوضعت الغليون على الطاولة، وقالت:

– ولكنك لن تسافر.

فقلت:

– لو رفضت أن أذهب. كيف يمكننا أن نعيش؟

– أنا مستعدة لأن أذهب معك فأنا أحب أن أرى لندن.

قلت:

– إن ذلك سيكون غير مريح بالنسبة لك. لو عشنا هناك معًا دون زواج.

– ولكن ربما وافقت زوجتك على الطلاق.

فقلت:

– ربما.

فقالت:

– سوف أذهب معك على كل حال.

وكانت تعني ما تقول ورفعت الغليون وقالت:

– هل هنالك ناطحات سحاب في لندن؟

وشعرت بحبي لها من سذاجة سؤالها، فقد تكذب عليَ أدبًا منها أو لخوفها مني أو لمجرد أن تنتفع ولكن لم يكن لديها الذكاء الكافي لإخفاء كذبها وقلت لها:

– لا. إذا أردت أن تشاهدي ناطحات السحاب فعليك أن تذهبي لأمريكا.

فنظرت إليَ نظرة سريعة من فوق الكأس التي في يدها وشعرت بغلطتها. وأخذت تتكلم وهي تعد الملابس التي سوف ترتديها عند ذهابها إلى لندن. كما تكلمنا عن المترو تحت الأرض الذي قرأت عنه في إحدى الروايات و«الأتوبيسات» ذات «الطابقين». وهل سنسافر بالطائرة أو تأخذ الباخرة وكذلك تكلمت عن تمثال الحرية فقلت لها:

– يا فونجج. إن تمثال الحرية أمريكي.

الفصل الرابع

بعد مرض طويل ألزمني الفراش مدة في المستشفى صعدت في السلم ببطء إلى مسكني في شارع كاتينات وأنا أتوقف وأستريح على أول «بسطة» منه. وأخذت النسوة يثرثرن «كعادتهن» وهن جالسات على الأرض. وساد الصمت عندما مرت وساءلت نفسي: ترى ماذا كن يقلن لي لو كنت أعرف لغتهن؟ أسوف يخبرنني عن الأحداث التي مرت في أثناء وجودي في المستشفى. ولقد كنت فقدت مفاتيحي بين البرج والحقول ولكني أرسلت خطابًا إلى فونجج، ولابد أنها تسلمته لو كانت مازالت موجودة، فأنا لم أسمع أي أخبار عنها في المستشفى ولكنها كانت تكتب الفرنسية بصعوبة وأنا لا أستطيع قراءة الفيتنامية.

وقرعت الباب وفتح على التو وبدأ كل شيء كما تعودته. ورقبتها بدقة وهي تسألني عن حالي ولمست ساقي الجريحة وأعطتني كتفها لكي أستند عليها كما لو كان المرء يستطيع أن يعتمد وهو آمن على الذراع الغض وقلت:

– أنا سعيد بعودتي إلى المنزل.

وقالت لي: إنها إفتقدتني.

وهو بالطبع ما كنت أريد أن أسمعه وهي متعودة قول ما أحب أن

أسمعه كأنها حوذي يجيب عن أسئلة الراكب إلا ما قد يبدو منه عن غير قصد. والآن انتظرت حدوث ذلك وسألتها:

– أسليت نفسك؟

فقالت:

– إني كنت أرى أختي دائمًا. فقد حصلت على وظيفة مع الأمريكيين.

– هل ساعدها بيل؟

– ليس بيل. إنه جو.

– من هو جو؟

– إنك تعرفه فهو الملحق الاقتصادي.

– آه بالطبع – جو.

فقد كان جو من السهل نسيانه. وحتى يومنا هذا لا أستطيع تذكر شيء عنه عدا سمنته وذقنه الحليق المعطر وضحكته العالية واسمه وكل مميزات شكله عدا ما تقدم لا أذكرها وهناك بعض الرجال يختصرون دائما أسماءهم.

وبمعاونة فونجج استلقيت على السرير. وسألتها:

– هل شاهدت أية روايات سينمائية؟

فقالت:

– إن هناك فيلمًا سينمائيًا في سينما كاتينات.

وشرعت على الفور تقص عليَ قصة الفيلم في إسهاب وتفصيل على حين شغلت أنا بالنظر إلى جوانب الحجرة عسى أن أرى مظروفًا أبيض يمثل التلغراف الذي أنتظره. وربما كان المظروف على المنضدة بجوار الآلة الكاتبة أو على «التسريحة». وربما وضعته زيادة في السلامة داخل «الدولاب» في أحد الأدراج حيث تحتفظ بمجموعتها من «الإيشاربات» وواصلت الكلام عن الفيلم..

ثم قالت:

– لقد كان الفيلم مضحكًا.

وقلت لها:

– قبليني يا فونجج؟

فاستجابت على الفور ولم يكن لديها شيء من خداع النساء وكانت تفعل على الفور ما أطلبه منها. وهكذا بكل «بساطة» كانت مستعدة لأن تبادلني الحب وسألتها:

– هل جاءني خطاب؟

فقالت:

– نعم.

فقلت:

– لماذا لا تعطني إياه؟

فقالت:

– إنك لا تستطيع أن تعمل وعليك أن تستريح.

– ربما كان الخطاب ليس له دخل بالمعمل.

وأعطتني الخطاب ورأيت أنه قد فض قبل ذلك وقرأت: «نريد تلغرافًا من أربعمائة كلمة عن الجنرال لاتر وتأثير رحيله على الموقف العسكري والسياسي» وقلت لها:

– نعم إنه بخصوص العمل .. كيف عرفت؟ ولماذا قرأته؟

قالت:

– لقد ظننت أنه من زوجتك وكنت آمل أنه يحمل أخبارًا طيبة.

فسألتها:

– من الذي ترجم الخطاب لك؟

– لقد أخذته إلى أختي.

فقلت:

– لو كانت الأخبار سيئة هل كنت تتركيني يا فونجج؟

فمسحت بيدها على صدري لكي تبعث فيَ الثقة وهي لم تتحقق أن ما أريد منها في هذا الوقت هو الكلمات مهما كانت غير صادقة. وقالت:

– هل تريد أن تدخن؟ إن هناك خطابًا لك وأعتقد أنه من زوجتك.

فقلت:

– هل فتحت ذلك أيضًا؟

– أنا لا أطلع على خطاباتك .. أما التلغرافات فهي للجميع. فإن الكتبة في مكتب التلغراف يقرءونها.

وكان المظروف الوارد به خطاب زوجتي قد وضعته بين «الإيشاربات» وقامت وناولتني إياه. وتعرفت على الخط وأردت أن أسألها: لو كانت الأخبار سيئة ماذا ستفعل؟ لأني أعلم أن الأخبار من زوجتي لن تكون إلا سيئة. وإرسالها الخطاب يؤكد ذلك فلو أرسلت لي تلغرافًا لدل ذلك على نوبة مفاجئة من الكرم. أما إرسال الخطاب فمعناه الشرح وسرد المبررات.

وقالت فونجج:

– ما الذي أنت خائف منه؟

وقلت لنفسي:

– إني خائف من الوحدة ومن نادي الصحفيين والعزلة ومن بيل..

وقلت لها:

– جهزي لي كأسًا من البراندي والصودا.

ونظرت إلى الخطاب وقرأت في أوله «عزيزي توماس» وفي آخر «المحبة. هيلين» وإنتظرت البراندي والصودا وقلت:"إنه منها" وقبل أن أبدأ في قراءته فكرت في.. هل أكذب أو أقول لفونجج الحقيقة. وكان الخطاب كالآتي: «عزيزي توماس. أنا لم أدهش عندما تلقيت خطابك وعرفت أنك لا تعيش بمفردك. فأنت لست بالرجل الذي يستطيع ذلك هل أنت الذي يستطيع أن يعيش بمفرده مدة طويلة؟ أنت تلتقط النساء كما يلتقط رداؤك التراب وربما كنت أشعر بشيء من الشفقة بالنسبة لك لولا شعوري بأنه في إمكانك أن تجد ما يسليك بسهولة عند وصولك إلى لندن.وأنا لا أعتقد أنك سوف تصدقني. ولكن الذي جعلني أتمهل ولا أرسل لك تلغرافًا فيه كلمة «لا» هو تفكيري في الفتاة المسكينة التي تعيش معك فنحن أكثر منك أهمية في الموضوع». وتناولت جرعة من البراندي.

وقالت فونجج:

– هل الأخبار سيئة؟

فقلت:

– شديدة بعض الشيء. ولكنها محقة.

وقرأت باقي الخطاب:

«إني كنت دائمًا أعتقد أنك تحب «آن» أكثر من أية واحدة فينا حتى جمعت متاعك ورحلت. وأنت الآن يبدو أنك ترسم خطتك لترك فتاة أخرى وأستطيع أن أقول: إنه من ثنايا خطابك لم تكن تتوقع مني ردًا مناسبًا. لقد كتبت تقول: «إنك فعلت ما في وسعك» ألم تفكر أنت في ذلك؟ وما الذي كنت تفعله لو أرسلت لك برقية أقول فيها «نعم»؟ هل كنت ستتزوجها وأنت لم تقل لي إسمها وربما تخبرني عن اسمها؟ وأعتقد أنك مثل بقيتنا قد تقدمت في السن ولا تحب أن تعيش بمفردك وأنا نفسي أشعر بالوحدة القاتلة أحيانًا. وأعتقد أن آن قد وجدت صديقًا آخر ولكنك تركتها في الوقت المناسب».

وقلت لنفسي لقد أصابت الجرح القديم بالضبط. وشربت جرعة من البراندي وقالت فونجج:

– دعني أعد لك شرابًا مرة أخرى.

وقلت لها:

– إفعلي. إفعلى أي شيء.

وتابعت القراءة:

«إن هناك سببًا واحد يجعلني أقول لك «لا» ولا داعي للكلام عن السبب الديني لأنك لم تعتقد أن تفهم هذه الناحية قط.

فالزواج لا يمنعك من ترك امرأة. هل هو؟ بل فحسب يؤخر الذي سيحدث. وسوف يكون الأمر غير عادل بالمرة لهذه الفتاة التي تعيش معها لو بقيت معها مدة مثل المدة التي قضيتها معي، وسوف تأتي بها معك إلى لندن وستشعر بأنها غريبة وعندما تتركها ينتابها الخوف وأنا أعتقد أنها لا تعرف حتى كيف تستعمل الشوكة والسكين. وأنا قاسية في الكلام لأني أريد مصلحتها هي ولكن يا عزيزي توماس أنا أفكر فيك كذلك».

وأحسست بالمرض. فقد مر وقت طويل منذ تلقيت خطابًا من زوجتي ولقد دفعتها إلى كتابة هذا وكنت أشعر بألمها في كل سطر منه وكان ألمها يحرك ألمي فنحن قد عدنا إلى النظام القديم من إيلام كل منا للآخر.

وكنت مسرورًا لمهاجمة زوجتي لي ثانية. فلقد نسيت آلامها مدة طويلة وكان هذا هو الإرضاء الوحيد لها.

وقالت فونجج:

– هل ستتركك لتتزوجني؟

– أنا لم أعرف بعد.

فقالت:

– ألم تقل في خطابها؟

فأجبتها:

– لو قالت ذلك فإنها تقوله ببطء شديد.

وفكرت. لم يشعر الإنسان بالكبر عندما يجد نفسه مشغولًا من جانبين! إن الحروب الحقيقية أكثر براءة من هذه الحرب ومدافع المورتار لا تنزل أضرارًا أكثر من هذه الأضرار. وواصلت القراءة:

«ولو استجبت ضد كل مشاعري وقلت: «نعم» فهل يكون ذلك حسنًا بالنسبة لك. فلقد ذكرت أنك استدعيت إلى انجلترا وأنا متأكدة أنك تكره ذلك وتفعل أي شيء لتجعل الأمر أكثر سهولة وأستطيع أن أرى أنه في إمكانك التفكير في الزواج بعد شرب عدة كؤوس وفي أول مرة حاولنا ذلك أنا وأنت ولكننا فشلنا، والإنسان لا يبذل الجهد نفسه عند تفكيره في الزواج مرة أخرى. وأنت تقول: إن فقدك هذه الفتاة معناه أن هذا نهاية حياتك. وقد استخدمت الجملة نفسها سابقًا بالنسبة لي وأستطيع أن أريك الخطاب. فمازلت محتفظة به وأعتقد أنك كتبت بالطريقة نفسها إلى «آن» وقلت: إننا دائمًا نحاول أن يقول أحدنا الصدق للآخر. ولكن يا توماس صدقك كان دائمًا مؤقتًا. وما الفائدة من المناقشة معك أو محاولة جعلك تفهم الأسباب؟ إنه من الأسهل أن أفضل ما تمليه عليَ عقيدتي وهو ما تظنه غير منطقي وأنت تكتب «ببساطة». أنا لا أعتقد في الطلاق، وديني يمنع الطلاق، والجواب عن السؤال يا توماس هو «لا. لا.».

وكان هناك نصف صفحة قبل «الإمضاء» ولم أقرأها وأعتقد أنها تحمل أخبار «الطقس» وأخبار إحدى عماتي التي أحبها.

ولم يكن لدي سببا للشكوى. وكنت أتوقع الجواب وفيه كثير من الحقائق وكنت أرجو ألا تعرض أفكارها هكذا بهذا الشكل من الشرح المؤلم لي ولها وقلت لفونج:

– إنها تقول لا «وقلت ذلك بدون تردد» فهي لم تستقر على رأي. وهناك بعض الأمل.

وضحكت فونج وقالت:

– تقول هناك أمل ووجهك في غاية الحزن.

واستلقت عند قدمي وسألت نفسي: ماذا أقول لبيل؟. وبعد أن شربت أكثر أحسست بأني أكثر استعدادا لمواجهة المستقبل وقلت لها أن الأمل كبير في موافقة زوجته على الطلاق وأن زوجتي تستشير أحد المحامين وأنه من المتوقع بين يوم وآخر أن أتلقى التلغراف الذي يجعلني حرًا.

وقالت لي هي، وكأن صوت أختها الذي يتكلم:

– إن التلغراف ليس مهمًا إلى هذه الدرجة. وفي إمكانك أن تعقد معها اتفاقًا.

فقلت لها:

– أنا لست مدخرًا نقودًا ولا أستطيع أن أفوق بيل في هذه الناحية.

فقالت:

– لا تقلق ربما حدث شيء فهناك «عادة» طرق كثيرة وتقول أختي: إن في إمكانك التأمين على حياتك.

وفكرت في الطريقة العملية التي تفكر بها أختها والتي لا تقلل من أهمية النقود في حل المشكلات ولا تجعل من روابط الحب شيئًا كبيرًا.

وفي ذلك المساء اشترت فونج ثلاثة «إيشاربات» من الحرير قبل أن تغلق المحال في شارع كاتينات وجلست على السرير وأخذت تعرضها عليَ وهي تصيح مبتهجة بألوانها الجذابة وهي تملأ الغرفة بصوتها الموسيقي ثم طوتها بعناية ووضعتها مع باقي الملابس في درج «الدولاب» وكان يبدو أنها تعد العدة لإقامة طويلة وساعدتها في ذلك بأن كتبت خطابًا إلى بيل في المساء نفسه وكان خطابًا غاية في الوضوح والنظر إلى المستقبل. وهذا هو نص الخطاب الذي كتبته في الليلة نفسها حيث إني وجدته ثانية في كتاب «يورك هاردنج» مسئولية الغرب، الذي أخذته من منزله ولابد أنه كان يقرأ الكتاب عندما وصل إليه الخطاب فوضعه داخله. كتبت له أقول:

«عزيزي بيل..

«لقد كنت أنوي أن أكتب لك من المستشفى لكي أشكرك على ما حدث في الليلة المعهودة. لقد أنقذتني حقيقة من نهاية غير مريحة. وأنا أستطيع أن أمشي الآن معتمدًا على عصا. فلقد كان الكسر في ساقي. وعندي ما أريد أن أعلنه لك. وأنا عارف بأنك سوف تسر له لأنك كنت تقول دائمًا: إن «صالح» فونج هو ما نريده نحن – الإثنين – فلقد وجدت

خطابًا من زوجتي عندما عدت إلى المنزل وهي موافقة على طلاقي وبذلك فأنت لست في حاجة إلى أن تقلق على فونج.

وسألتني فونج أي لون تفضله في الإيشاربات فأنا أحب اللون الأصفر؟ فقلت لها: «نعم» اللون الأصفر. ثم قلت: هل لك أن تذهبي إلى الفندق وترسلي هذا الخطاب بالبريد؟ فنظرت إلى العنوان وقالت: أستطيع أن أحمله إلى المفوضية وبذلك نوفر طابع البريد. فقلت: أفضل أن ترسليه بالبريد.

ثم تمددت في فراشي مرتاحًا وقلت لنفسي: على الأقل هي لن تتركني الآن قبل أن أضطر إلى السفر وربما في الغد بعد الشراب أستطيع أن أفكر في طريقة تمكنني من البقاء. وتمضي الحياة المعتادة. وكما في الغارات الجوية فإن من المستحيل أن يكون الإنسان خائفًا باستمرار. فالمرء تحت تأثير العمل اليومي والأحداث التي تقابله والانفعالات غير الشخصية يفقد مخاوفه الشخصية. وكان التفكير في شهر أبريل ومغادرة الهند الصينية والمستقبل المجهول بدون وجود فونج ..كل هذا قد تأثر بالتلغرافات اليومية الخاصة بالعمل والنشرات التي تصدرها صحافة البلاد وبمرض مساعدي وهو رجل هندي من «جوا» جاءت عائلته إلى البلاد عن طريق بومباي واسمه «دومنجيز» وكان يحضر في غيابي المؤتمرات الصحفية غير المهمة ويفتح أذنيه إلى الإشاعات وما يدور من كلام ويرسل التلغرافات التي أكتبها إلى مكتب التلغراف وإلى الرقيب وكان يقوم بمعاونة أبناء وطنه

من الهنود من التجار وخاصة في الشمال في هايفونج وهانوي ونام دينه بأعمال المخابرات لحسابي وأعتقد أنه كان يعرف أكثر من المندوب السامي الفرنسي أماكن حشد الكتائب الشيوعية في دلتا نهر توسكين.

ولكننا لم نكن نستخدم الأخبار التي تحصل عليها إلا عندما تصبح معروفة ولم نكن ندلي بأية معلومات إلى المخابرات الفرنسية وكان يستحوذ على صداقة العديد من الفيتناميين وثقتهم وخاصة في سايجون ولكونه كان آسيويًا بالرغم من إسمه كان هذا مدعاة للثقة الكبيرة به.

وكنت أحب «دومنجيز» لأخلاقه، وكل ما تحسه فمن اختلاطك به في المعاملات اليومية هو رقته وتواضعه وحب الحقيقة ولا يستطيع أن يكشف كبرياءه إلا من كان شديد الالتصاق به مثل زوجته وربما كانت الحقيقة والتواضع صفتين متلازمتين من صفاته وأن كثيرًا من الأكاذيب مبعثها كبرياؤنا وفي مهنة كمهنتي وهي الصحافة فإن كبريائي متمثل في أن أكتب تحقيقًا صحفيًا أهم من الذي يكتبه الصحفي الآخر. ولقد كان «دومنجيز» هو الذي ساعدني على عدم الاهتمام بالتلغرافات التي ترد من إنجلترا تتساءل: لماذا لم أكتب عن هذا الحدث أو ذاك؟ أو لماذا لم أكتب القصة التي رواها مراسل آخر؟ وأنا لم أكتب هذه القصة لعلمي بكذبها.

والآن بعد أن مرض دومنجيز تحققت كم أنا مدين له؟ لماذا لا أهتم به وكان هو يهتم بكل شيء حتى سيارتي كان يرعاها ويرى أنها مملوءة بالبنزين؟ وبرغم كل ذلك فلم يحدث مرة واحدة أن تدخل في حياتي

الخاصة ولا حتى بمجرد نظرة «وأعتقد أنه كان كاثوليكيًا». غير أني لم يكن لديَ ما يؤيد ذلك سوى إسمه والمكان الذي ينتمي إليه. والآن وخلال مرضه الذي كان يبدو لي أنه جاء رحمة لي لأن وقتي كله قد أصبح مشغولًا، وبذلك خلصني من القلق الشخصي. أصبح عليَ أن أحضر المؤتمرات الصحفية وأن أذهب إلى فندق الكونتننتال لأستمع إلى أحاديث زملائي وأشاركهم فيها. ولكني كنت أقل من دومنجيز مقدرة في تمييز الصحيح من الأخبار من الكاذبة فيها ولذلك تعودت المرور عليه في المساء لمناقشة ما قد سمعته من أخبار وأحيانًا كنت أجد لديه أحد أصدقائه من الهنود جالسًا بجوار السرير الحديدي الصغير الذي ينام عليه في المسكن الذي يشارك فيه آخر في أحد الشوارع الصغيرة المتفرعة من شارع جاليني. وكان عندما يراني يجلس في السرير وقد جمع قدميه تحته حتى يخيل إليك أنك لا توزر مريضًا بل أن الذي يستقبلك هو مهراجا أو قسيس وعندما كانت تتملكه الحمى كان وجهه ينضح بالعرق ولكنه لم يكن يفقد قط صفاء ذهنه وكان يبدو كما لو أن المرض الذي به حل بجسم آخر غير جسمه. كانت صاحبة المنزل الذي يقيم تضع دائمًا بجوار سريره إبريقًا مملوءًا بالشراب غير أني لم أره مرة واحدة يتناول منه شيئًا.

وكان هو الذي يسأل بقلق زائد عن صحتي ويعتذر عن السلالم التي أضطر إلى إرتقائها لزيارته ثم قال:

– أحب أن أقدمك إلى صديق لي فلديه قصة يجب أن تسمعها

فقلت له:

– نعم..

فقال:

– لقد كتبت إسمه في ورقة لأني أعرف أنك ستجد صعوبة في تذكر الأسماء الصينية ومفهوم أننا لن ننشر هذه القصة.. وصديقي هذا يملك مخزنًا للبضائع على «رصيف» ميثو والمخزن خاص بالحديد «الخردة».

– هل القصة مهمة؟

– قد تكون كذلك.

– هل لك أن تعطيني فكرة عنها؟

– أفضل أن تسمعها منه. فهناك شيء غريب ولكني لا أفهمه.

وكان العرق يتصبب من وجهه ولكنه لم يمسحه وتركه وكأنما حبات العرق كائنات حية ومقدسة. وهكذا كان يمثل بسلوكه صورة الهندوكي الأصيل من تحمل الألم دون شكوى ولم يكن يقدم قط على تعريض حياة ذبابة للخطر.. ثم قال:

– كم تعرف عن صديقك بيل؟

– لا أعرف كثيرًا فاتجاهنا متضاد. وهذا كل ما في الأمر. وأنا لم أره منذ كنا معًا في «تان ين».

– أية وظيفة يعمل فيها؟

– البعثة الاقتصادية. ولكن عمل هذه البعثة يغطى تحته مساوئ كثيرة وأعتقد أنه مهتم بالصناعات المنزلية. وأعتقد أن اهتمامه هذا ذو صلة بالسياسة الأمريكية. وأنا لا أحب الطريقة التي يدفعون بها الفرنسيين لمواصلة القتال وفي الوقت نفسه يزاحمونهم في تجارتهم.

– لقد سمعته يتكلم منذ أيام في حفلة إقامتها المفوضية لرجال الكونجرس الزائرين. فلقد عينوه لكي يزودهم بالمعلومات عن البلاد.

فقلت:

– ليكن الله في عون الكونجرس فهو لم يمر عليه ستة أشهر في البلاد.

– لقد كان يتكلم عن القوى الإستعمارية القديمة – فرنسا وإنجلترا – وكيف أنهما لا يستطيعان كسب ثقة الآسيويين وأن الدور حل على أمريكا التي تدخل الميدان.

فقلت له:

– لابد أنه تكلم عن إستعمارهم لهونولولو وبورتوريكو ونيو مكسيكو.

فتابع دومنجيز كلامه قائلًا:

– إذهب إلى صديقي وتكلم معه.

وعدت إلى المنزل حيث تركت مذكرة لفونج، وأخذت عربة إلى الميناء فوصلت عند غروب الشمس. وكانت المناضد والكراسي قد أخرجها أصحاب المقاهي إلى «رصيف» الميناء بجوار البواخر الراسية والسفن الحربية وكانت المطابخ المحمولة مشتعلة لطهي وجبة المساء. وفي شارع «السوم» كان الحلاقون الجائلون منهمكين مع «زبائنهم» تحت الأشجار وقارئو الطالع قد جلسوا القرفصاء وأسندوا ظهورهم للحائط وأمامهم «أكوام» من ورق اللعب. وفي حي «شولون» تجد نفسك في مدينة مختلفة عن بقية مدينة سايجون حيث يبدو كأنما النشاط اليومي آخذ في البدء لا في الانتهاء عند مغيب الشمس والسير في الحي يشبه السير في أجواء مسرحية. فاللافتات العمودية المكتوبة باللغة الصينية والأنوار الوهاجة والإزدحام الذي يحدثه وجود ممثلين إضافيين.

كل ذلك تسير فيه كأنك سائر في أجنحة المسرح وأروقته الخلفية، حيث يتحول المنظر فجأة إلى هدوء أكثر وأضواء أضعف وفي مثل هذا الجو وهذا الشعور سرت إلى أحد «الأرصفة» حيث تتزاحم الزوارق وتوجد المخازن مختفية في الظلال ولا أحد يوجد هناك. ووجدت المكان الذي أبحث عنه بصعوبة وبالمصادفة. فالأبواب الذهبية كانت مفتوحة وكنت أستطيع أن أرى على ضوء مصباح «أكوام» البضائع القديمة.. كلها مناظر من رسوم بيكاسو، أسرة قديمة، وأحواض إستحمام، و«طفايات» للسجائر، وهياكل سيارات.

وسرت خلال ممر ضيق وناديت من بعيد مستر شو ولكن ما من مجيب. وفي نهاية الممر وجدت سلمًا يؤدي إلى المدخل الخلفي للمسكن. وحتى السلالم كانت مملوءة بقطع من الحديد التي قد تصلح في يوم ما لاستخدامها في المنزل. وكان هناك غرفة كبيرة في المدخل والعائلة تجلس وينام بعض أفرادها كأنما هم في معسكر للراحة عرضة في أي وقت للرحيل، وهناك أكواب الشاي متناثرة في كل مكان وعديد من الصناديق مملوءة بأشياء لا حصر لها، وسلالم من الفبر جاهزة. وسيدة كبيرة في السن جالسة على سرير وبنتان وولدان. وطفل يزحف على الأرض. وثلاث نسوة متوسطات في العمر في سراويل بنية اللون «وجاكتات» من القماش نفسه ورجلان في زاوية الغرفة في ملابس زرقاء يلعبان لعبة للتسلية ولم يعرني أحد إنتباهًا عندما دخلت. وكان الرجلان يلعبان بسرعة ويتعرفان على القطع التي يلعبان بها بلمسها وكان الصوت يشبه حفيف الرمال على الشاطئ بعد انحسار الموج وقفزت قطة على أحد الصناديق وإقترب كلب مني ليشمني ثم تراجع وقلت:

– المستر شو.

وهزت إمرأتان من الثلاثة رأسيهما دون أن تنظرا إلى أحد ممن في الغرفة ورفعت إمراة قدحًا من الشاي فغسلته ثم ملأته من وعاء ساخن في صندوق مبطن بالحرير. وجلست على حافة السرير بجوار السيدة العجوز وأحضرت لي فتاة قدح الشاي وبدا كما لو انني قد اندمجت في الجو مثلي

مثل القطة والكلب. وزحف الطفل على الأرض ومد يده ليجذب رباط حذائي ولم ينهره أحد، وعلى الحائط كانت توجد ثلاث نتائج من التي توزعها البيوت التجارية وعلى كل منها صورة فتاة في لباس صيني زاهي اللون ذات خدود «موردة». كما توجد مرآة كبيرة كتب عليها «قهوة السلام» وربما كانت من المخلفات وشربت على مهل الشاي الأخضر المر وأنا أنقل «الفنجان» الذي ليس له يد من كف إلى كف كلما أحرقتني حرارته. ثم حاولت مخاطبة أفراد العائلة بالفرنسية وسألتهم:

– متى يحضر مستر شو؟

ولكن لم يجبني أحد. وربما لم يفهموا قولي. وعندما أفرغ قدحي ملئوه مرة تانية وظل كل منهم على ما هو فيه. فامرأة كانت تكوي الملابس وفتاة تقوم بالحياكة. والصبيان منهمكان في الإستذكار. والسيدة العجوز تنظر إلى قدميها الصغيرتين نتيجة «للعادة» الصينية القديمة من لبس الأحذية الحديدية في الصغر. والكلب يرقب القطة التي ظلت جالسة فوق الصناديق. وبدأت أتحقق من الحياة الشاقة التي يحياها دومنجيز.

ودخل رجل صيني – في منتهى النحافة – الغرفة وكان يبدو وكأنه لا يشغل حيزًا ما أو كأنه في سمك الورقة التي توضع لفصل البسكويت بعضه عن بعض في الصناديق وكل السمك فيه متمثل في بيجامته المخططة التي يرتديها. وسألت:

– المستر شو؟

فنظر إليَ دون تعبير يذكر في عينيه. ونظرت إلى نحافة صدغيه وإلى ذراعيه اللتين في حجم ذراعي فتاة صغير ومعصميه اللذين يشبهان معصمي طفل. وقلت:

– إن صديقي مستر دومنجيز قال لي إن لديك شيئًا تريد أن تطلعني عليه. هل أنت مستر شو؟

– نعم أنا فعلًا المستر شو.

وأشار إليَ باحترام أن أعاود جلوسي وخيل إليَ أنه قد نسي السبب الذي جئت من أجله وسألني هل أرغب في قدح من الشاي وإنه تشرف جدًا بزيارتي، قدم لي قدحًا آخر. ونظر الرجل حوله إلى عائلته كأنما يراها لأول مرة وقال:

– أمي وأختي وزوجتي وعمي وأخي وأطفالي وأطفال عمتي.

أما الطفل فقد زحف بعيدا عن قدمي ونام على ظهره وهو يضرب الهواء بقدميه. وسألت نفسي: ترى طفل من من هؤلاء؟ فليس في الموجودين من هو في ريعان الشباب أو في سن مناسبة لينجبه وقلت:

– لقد قالي مستر دومنجيز أن لديك أشياء هامة.

– آه. مستر دومنجيز .. آمل أن يكون في صحة طيبة.

– لقد أصيب بالحمى.

– إن الوقت غير صحي بالنسبة لهذا الفصل من فصول السنة.

وخيل إليَ أنه لا يتذكر من هو دومنجيز. وأخذ يسعل وتحت بيجامته التي فقد منها زرارين بدا جلده مشدودًا من الكحة كأنه معلق على حبل فقلت له:

– يجب أن ترى طبيبًا أنت نفسك.

ثم أحسست أن هناك قادمًا جديدًا قد دخل علينا. وكان شابًا يرتدي حلة أوربية أنيقة وقال بالإنجليزية:

– إن مستر شو ليست له إلا رئة واحدة.

فقلت:

– إني آسف جدًا.

– إنه يدخن كثيرًا.

– إن هذا فظيع.

– إن الطبيب قال له: إن ذلك مضر بصحته.

ثم قال:

– هل لي أن أقدم نفسي؟ أنا مدير أعمال مستر شو.

– إسمي فولر. ولقد أرسلني مستر دومنجيز حيث قال لي: إن لدى المستر شو شيئًا يريد أن يقوله لي.

– إن ذاكرة المستر شو قد ضعفت. هل لك في قدح من الشاي؟

– أشكرك لقد تناولت ثلاثة أقداح منه.

وقلت ذلك كأنه رد على سؤاله وسؤال عما جئت من أجله، وتناول مدير أعمال مستر شو القدح من يدي وسلمه لإحدى الفتيات التي ملأته مرة ثانية. وتناوله منها وتذوقه وقال:

– إن هذا الشاي ليس قويًا بما فيه الكفاية.

ثم قام بغسل القدح وملأه من إناء آخر وقال:

– إن هذا أحسن.

فقلت:

– نعم أحسن بكثير.

«وسلك» مستو شو زوره وبصق في مبصقة من الصفيح مزينة بأزهار حمراء وأخذ الطفل «يتشقلب» بين الصناديق وقفزت القطة من فوق الصندوق إلى حقيبة وقال مدير الأعمال:

– يحسن أن تتكلم معي. إن أسمي مستر هنج.

– لو أمكنك أن تقص عليَ ما جئت لسماعه.

– يحسن أن ننتقل إلى المخزن فهو أكثر هدوءًا.

ومددت يدي إلى مستر شو الذي تناولها بشيء من الدهشة، وأخذ ينظر حوله في الغرفة كما لو كان يريد أن يجعلني متلائمًا معها. ونزلنا من

الدرج أنا والمدير الذي قال لي:

- حاذر فإن «السلمة» الأخيرة غير موجودة.

وأشعل بطارية لتنير لي الطريق ووصلنا إلى المخزن بين الأسرة القديمة وأحواض الحمام وقادني مستر هنج إلى ممر جانبي، وعندما سار حوالي عشرين خطوة توقف وأضاء البطارية وسلطها على برميل من الحديد وقال:

- هل ترى ذلك؟

قلت:

- وماذا عنه؟

فأدار البرميل وأظهر العلامة التجارية عليه فقرأت عليه: «ديولكتون».

فقلت له:

- إن هذا لا يعني شيئًا بالنسبة لي.

فقال:

- إن لدي برميلين من هذا النوع. لقد عثرنا عليهما في جراج المستر «فان فان موي» في أثناء إزالتنا لبعض المخلفات .. هل تعرفه؟

- لا. لا أظن ذلك.

- إن زوجته من أقارب الجنرال ثي.

– ما زلت غير فاهم.

– هل تعرف ما هذا؟

ورفع مستر هنج شيئًا من الأرض يشبه عصا منحنية من الداخل أخذت تلمع عندما سلط عليها ضوء البطارية وقال:

– هل تعرف ما هذا؟

فقلت:

– لا.

فقال:

– إنه أداة لصهر المعادن.

وكان يبدو على مستر هنج أنه من الأشخاص الذين يجدون سعادة في إعطاء الأوامر. وتوقف مدة برهة لكي أظهر جهلي وقال:

– هل تعرف ماذا يعني هنا؟

فقلت:

– نعم بالطبع لكن لا أستطيع أن أتابعك فيما تهدف إليه.

فقال:

– إن هذه الآلة صنعت في الولايات المتحدة بشركة «ديولكتون» إسم تجاري أمريكي هل بدأت تفهم؟

– بصراحة. لا.

– إن هذه الآلة فيها عيب. ولذا تخلصوا منها. ولكن ما كان يجب أن يتخلصوا منها مع المخلفات وكذلك بالنسبة للبراميل. فلقد كانت هذه غلطة ولقد جاء مدير مستر موي هو نفسه وسأل عنها. ولم أستطع أن أعثر له على الآلة ولكني تركته يأخذ البرميل الثاني لأني قلت له: أنه لا يوجد لدي سواه. وقال هو أنه محتاج إليه ليضع فيه بعض «الكيماويات» وبالطبع لم يسأل عن الآلة وإلا كشف نفسه ولكنه بحث عنها مدة طويلة، ثم ذهب مستر موي هو نفسه إلى المفوضية الأمريكية وسأل عن مستر بيل.

فقلت له:

– يبدو أن لك قلم مخابرات منظمًا.

برغم أني لم أكن أعلم حتى تلك اللحظة ماذا يعني هذا كله وقال:

– لقد طلبت من مستو شو أن يتصل بمستر دومنجيز.

– هل تعني أنك استطعت أن تثبت صلة بيل بالجنرال ثي. وهذا لا يعد ذا أهمية فالأمر ليس جديدًا والكل هنا يسعي وراء الأخبار.

وقام مستر هنج بضرب كعبه في البرميل الأسود وسرى صوت الصدى في المخزن ثم قال:

– مستر فولر. أنت إنجليزي ومعنى ذلك أنك محايد وكنت عادلًا

معنا وتستطيع أن تؤيد بعطفك أي الجانبين ترى أنه على حق.

– إذا كنت تعني أنك شيوعي أو من رجال الفيتنامية فلا تقلق، فأنا لم أذهل لأنه ليس لي لون سياسي.

– لو حدث شيء غير سار هنا في سايجون فسوف ينسبون هذا العمل إلينا. واللجنة التي أتبعها تريد منك أن تنظر بعين العدل إلى ما يحدث ولهذا أريتك هذه الأشياء.

فقلت له:

– ماذا تعني كلمة «ديولكتون؟» إنه يبدو لي أنها ماركة لبن محفوظ.

قال:

– إن لها صلة باللبن المجفف.

وأضاء بالبطارية داخل البرميل. فشاهدت مسحوقًا أبيض على القاع وقال هنج:

– إن هذا هو البلاستيك الأمريكي.

فقلت:

– لقد سمعت شائعات تقول: أن بيل يستورد البلاستيك من أجل لعب الأطفال.

فقال هنج:

– إنه لا يستورد من أجل اللعب.

فقلت:

– إن هذه الآلة تشبه العصا.

فقال:

– إن الشكل ليس غريبًا.

– أنا لا أرى في أي شيء يمكن أن يستخدم.

فاستدار المستر هنج وقال:

– أنا أريد «فقط» أن تتذكر ما رأيته. وربما في مستقبل الأيام ستكون لديك فكرة لأن تكتب عما شاهدته هنا الليلة، ولكن يجب ألا تقول لأحد أنك شاهدت البرميل في هذا المكان.

فقلت له:

– وحتى هذه الآلة التي تشبه العصا.

فقال:

– وعلى الخصوص هذه الآلة.

وأنه ليس من السهل على المرء أن يقابل لأول مرة الشخص الذي يُقال إنه أنقذ حياتك. ولم أر بيل طوال المدة التي قضيتها في المستشفى وكان لغيابه عني وصمته عن الاتصال بي أثره عليَ، فطالما تخيلته ذاهبًا إلى

مسكني متسلقًا السلالم ثم فاتحًا للباب وذاهبًا للنوم في فراشي وكنت غير محق في تخيلاتي هذه، ولذا شعرت بأسفي من سوء ظني وكان شعوري بالذنب يضيف أحمالًا إلى باقي إلتزاماتي ومنها كتابة الخطاب الذي أرسلته إلى زوجتي.

وساءلت نفسي: أي أجداد لي أورثوني هذا الإحساس بالذنب.. وقطعًا كانوا متخلصين من مثل هذا الشعور في أيامهم الغابرة عندما كانوا قبائل متفرقة تقتل وتنهب دون إحساس بأي ذنب في تلك العصور الأولى. وساءلت نفسي: هل أدعو منقذي إلى العشاء؟ أو الأفضل أن أدعوه إلى تناول كأس معي في بار الكونتيننتال.. فلقد كانت مشكلة إجتماعية غير معتادة، وربما قيمتها تستمد من الأهمية التي يعلقها الإنسان على حياته وشغلتني هذه المسألة.. هل أدعوه إلى الطعام مع زجاجة من النبيذ أو أكتفي بدعوته إلى شرب عدة كؤوس من الويسكي؟ ولقد حل هذه المشكلة بيل الذي حضر وناداني من خلال الباب المغلق حيث كنت نائمًا خلال فترة الظهيرة الحارة وقد أتعبني المجهود الذي بذلته في الصباح لتمرين ساقي على السير ولم أسمعه وهو يقرع الباب.

وسمعته ينادي بصوت عال:

– توماس.. توماس.

وخيل إليَ إنني أسمعه في حلم وأنه يحمل معنى الألم انه يناديني من برج محاصر وهو يصيح من الألم، وأخذ يناديني كأنما يخاطبني:

– توماس.. توماس.

فقلت له:

– إذهب بعيدًا عني يا بيل فلا أريد أن تنقذني. لا تقترب مني.

ثم سمعت قرعه على الباب وهو يقول:

– توماس..

غير أنني ظللت مستلقيًا في فراشي كما لو كنت نائمًا في حقل الأرز في تلك الليلة وهو العدو الذي يريد موتي. وفجأة شعرت بأن القرع على الباب قد توقف وأن هناك شخصًا يتكلم في همس في الخارج وأنا أكره الهمس «وأعتبره» خطرًا ولم أستطع أن أميز المتكلمين ونهضت من الفراش ببطء مستعينًا بالعصا ووصلت إلى باب الغرفة التالية وربما سمع المتكلم حركتي فإنقطع الكلام ولم أحب هذا فسارعت بفتح الباب، فشاهدت فونج واقفة في المر وكان بيل واقفًا ويداه على كتفيها كأنما كانا متعانقين وصحت قائلًا:

– تعاليا.. أدخلا.

فقال بيل:

– أنا لم أستطع أن أسمعك صوتي.

فقلت:

– لقد كنت نائمًا في أول الأمر وكنت أفضل الإنفراد بنفسي ولكن حيث إنك قد حضرت فأدخل.

وقلت لفونج بالفرنسية:

– أين عثرت عليه؟

فقالت:

– هنا في الممر، لقد سمعته وهو يقرع الباب فأسرعت لكي أفتح له.

وقلت لبيل:

– إجلس. هل تريد قدحًا من القهوة؟

فقال:

– لا. وأنا لا أريد أن أجلس يا توماس.

فقلت:

– أما أنا فيجب أن أجلس فساقي تؤلمني. هل تلقيت خطابي؟

– نعم. لقد تلقيته وكنت أود ألا تكون قد كتبته.

فقلت:

– لماذا؟

فقال:

– لأنه مجموعة من الأكاذيب، إني كنت أثق فيك يا توماس.

فقلت له:

– يجب ألا تثق في أحد عندما تكون هناك إمرأة في الموضوع.

فقال:

– إذن يجب عليك ألا تثق فيَ بعد الآن، فسوف أحضر إلى هنا من خلف ظهرك عندما تخرج وسوف أكتب خطابات على الآلة الكاتبة. وربما أكون قد كبرت في السن يا توماس.

ولكن كانت هناك دموع في صوته وبدا لي أنه أكثر شبابًا من أي وقت مضى. وتابع بيل كلامه قائلًا:

– ألم تكن تستطيع أن تربح بدون أن تكذب؟

فقلت له:

– لا. إن هذه هي طريقة الأوربيين في مثل هذه المسائل. وعلينا أن نحطاط لقلة ما في أيدينا من مؤن. ولابد أني كنت غبيًا في كتابتي للخطاب. كيف تعرفت على الأكاذيب في خطابي؟

فقال:

– إن السبب في ذلك يرجع إلى أخت فونج، فإنها تعمل مع جو الآن وقد رأيتها لتوي وهي تعرف أنهم قد استدعوك إلى إنجلترا.

فقلت:

– لقد فهمت. هل عرفت فونج؟

فقال:

– والخطاب الذي ورد من زوجتك. هل تعرف فونج عنه شيئًا؟ فقد رأته أختها.

فقلت:

– كيف رأته؟

فقال:

– لقد حضرت إلى هنا لرؤية فونج عندما خرجت أنت أمس وقد قدمته لها فونج لقراءته وبالطبع لا تستطيع أن تخدعها فهي تقرأ الإنجليزية.

فقلت له:

– لقد فهمت.

ولم أجد سببًا يدعوني إلى أن أغضب من أحد فأنا الذي يجب أن يغضب منه، وفونج أعطت أختها الخطاب كنوع من الفخر والاعتزاز ولم يكن ذلك دليلًا على عدم ثقتها. وقلت لفونج:

– هل عرفت ذلك كله الليلة الماضية؟

فقالت:

– نعم..

فقلت لها:

– لقد لاحظت عليك بالأمس أنك كنت صامتة، ولكنك غير غاضبة مني.

فقالت لي:

– كان عليَ أن أفكر.

وتذكرت أنني عندما إستيقظت خلال الليل لاحظت عدم إنتظام تنفسها مما يدل على أنها غير نائمة، ووضعت ذراعي حولها وقلت لها:

– هل تحلمين؟

حيث إنها كانت تصاب بالكابوس عندما جاءت لأول مرة لتقيم معي في شارعِ كاتينات، ولكنها بالأمس هزت رأسها ولم تشبه وأدارت ظهرها، وقال بيل:

– ألا تستطيع يا توماس أن تشرح لماذا كل هذه الأكاذيب؟

فقلت له:

– بالطبع إن هذا واضح للعيان فأنا أردت أن أحتفظ بها.

فقال:

– دون مراعاة «صالحها» في شيء؟

فقلت:

- بالطبع.

فقال:

- إن هذا ليس هو الحب.

فقلت:

- ربما لم يكن هو الحب بالنسبة لك يا بيل.

فقال:

- لقد أردت أن أحميها.

فقلت له:

- ولكن لا أريد أن أحميها فهي ليست في حاجة إلى حماية، وكل ما أريده هو أن أراها معي.

فقال:

- ضد إرادتها.

فقلت:

- إنها لن تبقى بدون إرادتها.

فقال:

- إنها لن تشعر نحوك بالحب بعد ذلك.

وكانت أفكاره من «البساطة» إلى هذه الدرجة واستدرت لكي أنظر إلى فونج فوجدت أنها قد دخلت غرفة النوم وجلست على السرير وأخذت تطالع في كتالوج مصور عن العائلة المالكة وقلت لبيل:

– إن الحب كلمة غريبة ونحن نستعملها لكي نخفي بها مشاعرنا الحسية نحو امرأة ما، وهؤلاء القوم في هذه البلاد لا يعانون المشاعر الحسية وأنت سوف تصاب بأذى إن لم تكن حذرًا يا بيل.

فقال:

– إنني كنت مستعدًا لضربك لولا هذه الساق المصابة.

فقلت له:

– يجب أن تكون شاكرًا لي وكذلك بالنسبة لأخت فونج. إن لك أحوالًا غريبة. أليس كذلك وخاصة إذا كانت الأمور لا تتعلق بالبلاستيك.

فقال:

– البلاستيك؟

فقلت:

– إني أرجو من الله ألا تكون مدركًا لما تفعله. أنا أعلم أن دوافعك طيبة فهي دائمًا حسنة.

وبدأ عليه إنه متحيز ومتشكك ثم قال:

– أريد أن أمنحها حياه شريفة إن هذا المكان ينضح برائحة العار.

فقلت له:

– نحن نقضي على الرائحة بأعواد من الطيب نحرقها. وأعتقد أنك قد وعدتها بثلاجة وسيارة وآخر طراز من أجهزة التليفزيون.

فقال:

– وكذلك الأطفال أما أنت فماذا سوف تقدم لها؟ فأنت لن تصحبها معك إلى بلدك.

فقلت له:

– لا. لن أصحبها معي فأنا لست قاسيًا إلى هذه الدرجة إلا إذا كان لدي الاستعداد لمنحها تذكرة عودة.

فقال:

– إذن أنت تريد أن تبقيها كأداة للتسلية حتى تغادر هذه البلاد.

فقلت له:

– إنها مخلوق آدمي.. يا بيل، وتستطيع أن تقرر ما هو في مصلحتها.

فقال:

– تقرر على أساس «خاطئ»، وهي لا تعدو أن تكون طفلة.

فقلت:

– إنها ليست بطفلة، إنها أكثر متانة منك، هل تعرف هذا النوع من الطلاء الذي لا يخدش؟ إنه فونج.. إنها تستطيع أن تواجه حفنة من أمثالنا، وكل ما في الأمر أنها سوف تتقدم في السن، وسوف تعاني متاعب الولادة والجوع والبرد وآلام الروماتيزم ولكنها لن تعاني أبدًا التفكير مثلما نفعل نحن الغربيين، وهي لن تخدش بل كل ما في الأمر أنها ستذوى.

وبينما كنت أتكلم كنت أرقب فونج، وهي تقلب صفحات الكاتالوج وإستطعت أن أشاهد الصورة التي تشاهدها وهي صورة العائلة المالكة ومعها الأميرة «آن» وكنت أعلم أني أخلق شخصية غير موجودة بكلامي هذا مثلما يحاول بيل أن يخلق منها واحدة. فالفرد لا يعرف الإنسان الآخر، وكل الذي أستطيع أن أقول عنها: إنها مثلنا تمامًا وهي لم تمنح ميزة التعبير عن نفسها وهذا كل ما في الأمر، وتذكرت السنة الأولى التي حاولت أن أفهمها خلالها عندما سألتها أن تقول لي فيم تفكر وتسببت في إزعاجها عندما غضبت منها بسبب صمتها.

وقلت لبيل:

– لقد تكلمت ما فيه الكفاية وعرفت كل ما يمكنك أن تعرفه. أرجو أن تذهب.

فنادى «فونج» فردت عليه:

– مسيو بيل..

وهي تنظر إليه وكان تعبيرها يدل على الثقة ومضحكًا في الوقت نفسه. وقال بيل:

– لقد خدعك.

فأجابته:

– أنا لا أفهم ما تقول.

وقلت له:

– إذهب. إذهب إلى قوتك الثالثة ويورك هاردنج ومسئولية الديمقراطية، إذهب عنا لتلعب بالبلاستيك.

وفيما بعد تحققت أنه نفذ كلامي هذا بحذافيره. ثم أني لم أر فيجو إلا بعد موت بيل بأسبوعين، اذ كنت سائراً في شارع «شارنر» عندما سمعت صوته يناديني من «النادي» وكان النادي هو المطعم المفضل لدى رجال البوليس الذين كانوا كنوع من التحدي لهؤلاء الذين يكرهونهم.. يتناولون الطعام والشراب في الدور الأسفل على حين يجلس «الزباين» في الدور العلوي بعيداً عن متناول القنابل اليدوية التي تلقى، وإنضممت إليه وأمر لي بكأس من الفرموت وقال:

– هيا إلعب على الكأس.

وأخرجت الزهر من جيبي وأخذنا نلعب لعبة واحد وثمانين، وفكرت كيف أن مرأى الزهر يعيد إلى الإنسان ذكرى سنوات الحرب في الهند الصينية. وفي أي مكان في العالم عندما أشاهد رجلين يلعبان بالزهر تعود بي

الذكرى إلى هانوي أو سايجون واسط المباني المخربة في «فات ديم» وأرى رجال الباراشوت وهم محميون مثل الجرارات بملابسهم الغربية وهم يحرسون القنوات. وأسمع صوت مدافع المورتار، وربما أتخيل منظر طفل قتيل.. وكان للعبة ناحية حسية معروفة لكل رجال البوليس وربما إخترعها فيجو وأخذها منه زملاؤه من الضباط الصغار فكل دور يخسره اللاعب يرفعه درجة في رتبته العسكرية حتى يصل إلى رتبة الكابتن أو القومندان. وربح فيجو الدور الثاني كذلك كما ربح الأول وقال وهو يعد أعواد الثقاب:

– لقد عثرنا على كلب بيل.

قلت:

– نعم.

– أعتقد أن الكلب رفض أن يترك الجثة، وعلى كل فقد ذبحوه فقد وجدناه على بعد خمسين ياردة ومن المحتمل أنه حمل نفسه هذه المسافة.

فقلت:

– أمازلت مهتمًا بهذه الحادثة؟

فقال:

– إن الوزير الأمريكي مازال يضايقنا، ونحن لا نعاني هذه المشاكل والحمد لله عندما يقتل رجل فرنسي، ولكنه مثل هذه الحوادث لا تحمل طابع الندرة.

وأخذنا نلعب بتقسيم أعواد الثقاب أولًا، ثم شرعنا في اللعب الجدي، وكان فيجو ماهرًا في رمياته فهو يقذف الزهر بسرعة لكي يسجل الرقم المطلوب، وأصبح لا يملك سوى ثلاثة أعواد ثقاب. أما أنا، فكنت أرمي أقل الأرقام الممكن تسجيلها ودفع نحوي بعودين من الثقاب وعندما تخلص من آخر عود ثقاب معه خاطبني بقوله:

– كابتن.

ومعنى ذلك أنني خسرت الدور وعليَ أن أدفع ثمن الشراب وناديت الساقي وقلت لفيجو:

– هل يهزمك في هذه اللعبة أحد؟

فقال:

– ليس دائمًا، هل تريد أن تنتقم؟

فقلت:

– ليس الآن.. بل في مرة قادمة.. إنك لمقامر ماهر يا فيجو.. هل تلعب لعبة أخرى فيها مغامرة؟

فابتسم فيحو بتعس. ولأمر ما فكرت في زوجته الشقراء التي تصادق الضباط من مرءوسيه وقال فيجو:

– حسنًا. إن هناك اللعبة الكبرى.

فقلت له:

– اللعبة الكبرى.

فقال:

– دعنا نحسب المكسب والخسارة. إنك لو كسبت فسوف تكسب كل شيء ولو خسرت فإنك لا تخسر شيئًا.

فتذكرت أحد أقوال الفيلسوف باسكال التي يغرم بقراءتها فيجو.

– إن الرابع والخاسر في لعبة كلاهما مخطئ. فالطريق الصحيح لا يحتمل المقامرة.

– فقال فيجو:

– نعم. ولكن عليك أن تقامر. فأنت في حياتك ليس من الضروري أن تشبع مثلك العليا يا فولر. فأنت مرتبط بغيرك مثلنا.

فقلت:

– إنه ليس ارتباطًا دينيًا.

فقال:

– إنني لا أقصد الدين بل كنت أفكر في كلب بيل.

– آه..

– هل تتذكر ما قلته لي عن ضرورة تحليل التربية في مخالبه؟

– يالك من رجل ذكي وأنت تدعي التواضع.

قال:

– لقد توصلت إلى أشياء لا بأس بها. لقد تعود بيل أن يصحب كلبه معه عندما يخرج أليس كذلك؟

فقلت:

– أعتقد هذا.

قال:

– لأنه كان كلبًا ثمينًا لم يكن ليتركه وحده.

فقلت:

– إن تركه وحده لم يكن من الحكمة.

وتناول فيجو الزهر ووضعه في جيبه فقلت له:

– إن الزهر زهري يا فيجو.

– أنا آسف. فقد كنت مشغولًا بالتفكير.

– لماذا قلت: إنني مرتبط؟

– متى رأيت كلب بيل لآخر مرة يا فولر.

– الله وحده يعلم. فأنا لا أحتفظ بدفتر لقيد مواعيد الكلاب فيه.

فقال:

– متى تنوي أن تسافر إلى بلدك؟

– أنا لا أعرف بالتحديد. فأنا لا أحب أن أعطي رجال البوليس معلومات فإن ذلك يوفر عليهم المتاعب.

– إني أحب أن أمر عليك في بيتك حوالي الساعة العاشرة إذا كنت بمفردك.

– سوف أرسل فونج إلى السينما.

– سوف تكون الحالة «عادية» معها مرة أخرى.

– نعم.

– غريب هذا. فأنا كنت أعتقد أنك غير سعيد.

– من المؤكد أن هناك أسبابًا كثيرة تسبب التعس يا فيجو وأنت أدرى بذلك.

فقال:

– أنا.

قلت:

– نعم لأنك لست رجلًا سعيدًا.

قال:

– آه. ليس لدي ما أشكو منه. فإن منزلًا خربًا ليس بالمنزل التعس.

قلت:

– ما الذي تقوله؟

– إنه أحد اقوال باسكال مرة أخرى. إنه نوع من الجدل لكي تشعر بالكبرياء برغم بؤسك.

– إن الشجرة لا يمكن أن تكون تعسة.

قلت:

– ما الذي جعلك رجل بوليس يا فيجو؟

قال:

– هناك عدة عوامل. فالحاجة إلى كسب العيش. والاهتمام بمعرفة أحوال الناس وحب الفلسفة.

قلت:

– ربما كان من الأصوب لو كنت قسيسًا.

قال:

– أنا لم أقرأ كتاب الملائمين في تلك الأيام الخالية.

فقلت:

– أمازلت تشتبه فيَ؟ أليس كذلك؟ .. في أن لي صلة بمقتل بيل.

فوقف على قدميه وشرب ما تبقى من قدح الفرموت وقال:

– إنني أريد أن أتكلم معك هذا كل ما في الأمر.

وخيل إليَّ عندما استدار وتركني إنه نظر إلى نظرة فيها معنى كما لو كان ينظر إلى سجين مطلوب منه القبض عليه لتنفيذ حكم بالسجن مدى الحياة.

وشعرت أني محل للعقاب. وكأنما كان بيل عندما ترك بيتي قد حكم عليَ بالقلق لعدة أسابيع. فكل مرة أعود فيها إلى المنزل كنت أتوقع المصائب. وأحيانًا كنت لا أجد فونج هناك. وكان من الصعب عليَ أن أقوم بأي عمل حتى تعود من الخارج لأني كنت دائمًا أتساءل: هل سوف تعود أو لا؟. وعندما تأتي كنت أسألها أين كانت؟ وأنا أحاول أن أخفي اللهفة والقلق من نبرة صوتي. وكانت أحيانًا تجيبني بأنها كانت في السوق أو في بعض المحال وتقدم لي ما يثبت ذلك من البضائع التي اشترتها أو تقدم كعب تذكرة السينما التي دخلتها وأحيانًا تكون عند أختها حيث أعتقد أنها قابلت بيل.

وفي تلك الأيام كنت أبادلها الحب بوحشية كما لو كنت أكرهها، ولكن الحقيقة هي إنني كنت أكره المستقبل وما قد يحمله. فلقد كانت الوحدة شريكة في فراشي كل ليلة وفي كل ليلة كنت أضم الوحدة إلى صدري. برغم أنها لم تتغير. فقد كانت تطهو لي. وكانت تطيع أمري ولكني أصبحت أبحث كما كنت في أول معرفتي بها عن عقلها وأصبحت أريد أن

أقرأ أفكارها ولكن أفكارها كانت مختفية وسط «لفة» لا أستطيع أن أقراها ولم أكن أريد أن أستجوبها فأنا لا أحب أن أراها تكذب وكنت أستطيع أن أدعي أن الأمور بيننا لم تتغير مادامت لا تحدث أكاذيب مفضوحة، ولكن فجأة سيطر عليَ قلقي وسألتها:

– متى رأيت بيل لآخر مرة؟

فترددت في الجواب، أو إنها كانت تريد أن تسترجع ما حدث وقالت:

– عندما حضر هنا..

وفجأة أخذت أهاجم كل ما هو أمريكي، وكان حديثي مملوءًا بنقد الأدب الأمريكي.. والسياسة الأمريكية والأطفال الأمريكيين وخيل إليَ أنها قد إنتزعت مني لا «بواسطة» فرد بل إن الأمة كلها قد أخذت فونج مني. وأصبحت محدثًا غير مرغوب فيه عن أمريكا حتى مع أصدقائي الفرنسيين الذين كانوا يعطفون على آرائي.. وخيل إليَ إنني قد خدعت ولكن الخديعة لم تأت إلا من صديق.

وفي ذلك الوقت حدثت الأحداث المعروفة بإسم قنابل الدراجات فبينما كنت عائدًا من بار الأميريال إلى الشقة الخالية وفونج في السينما أو مع أختها وجدت مذكرة مدسوسة من أسفل الباب وكانت من «دومنجيز» وكان يعتذر فيها عن أنه مازال مريضًا ويطلب فيها مني أن أكون موجودًا عند ناصية المحل الكبير الذي في شارع «شارنر» في حوالي العاشرة

والنصف من صباح اليوم التالي وقال:

– إن هذا الموعد بناء على طلب المستر «شو» غير إني إشتبهت في أن المستر هنج هو الذي طلب حضوري.

وكان الأمر كله لا يحتمل أكثر من كتابة نصف عمود، وعمود نصف فكاهي كذلك، فالأمر لم يكن يتعلق بالحرب المحزنة الثقيلة الوطأة في الشمال ولا بهذه القنوات التي تزخر بالجثث الميتة في أرديتها القاتمة ولا بصوت قذائف المورتار، ولا بالوهج الساطع لقنابل النابالم، وظللت منتظرًا مدة ربع ساعة بجوار كشك لبيع الزهور عندما مر «لوري» من لوريات البوليس وكان آتيًا من ناحية قيادة إدارة البوليس في شارع كاتينات، ونزل رجال البوليس عدوًا من السيارة وإقتحموا المخزن كما لو كانوا يهجمون على مظاهرة لتفريقها ولم يكن هناك مظاهرة بل دراجات كثيرة، فكل بناء في سايجون كان محاطًا بالدراجات ولا يوجد في أية جامعة في الغرب هذا العدد من الدراجات وقبل أن يكون لديَ الوقت الكافي لإعداد آلة التصوير كان المنظر الفكاهي غير الممكن تفسيره قد إنتهى.. فقد إقتحم رجال البوليس طريقهم بين الدراجات وخرجوا وقد أخذوا ثلاثة منها وقد حملوها فوق رءوسهم وألقوها في النافورة التي في الميدان وقبل أن أتقدم لأسألهم عن الحادث كانوا قد عادوا إلى سيارتهم وساروا في شارع بونارد وسمعت صوتًا يقول «عملية الدراجات» وكان صوت مستر هنج وسألته:

– ما هي العملية؟ هل هي تمرين؟ ولماذا؟

فقال هنج:

– إنتظر فترة أخرى.

وأخذ بعض المتسكعين يقتربون من النافورة حيث برزت إحدى العجلات فوق سطح الماء كأنها تحذير لهم، وعبر أحد رجال البوليس الشارع وهو يصيح ويحرك يديه وقلت لمستر هنج:

– دعنا نلق نظرة.

فقال:

– يحسن بنا ألا نفعل.

ونظر في ساعته وكانت الساعة الحادية عشرة إلا أربع دقائق.

وقلت:

– إنك سريع.

فقال:

– إن السرعة هي التي تربح.

وفي اللحظة نفسها إنفجرت النافورة فوق الطوار وطارت شظية من «الرصيف» وحطمت زجاج إحدى النوافذ وسقط الزجاج المتناثر في الماء، ولم يصب أحد بسوء ونفضنا الماء والزجاج المتناثر على ملابسنا، وطارت عجلة إحدى الدراجات وأخذت تدور في الشارع، ثم توقفت وقال هنج:

– لابد إنها الحادية عشرة.

وقلت:

– ما الأمر؟

فقال هج:

– لقد اعتقدت أن رؤية هذا المنظر يهمك

فقلت له:

– تعال وتناول معي كأسًا.

– لا. إني آسف يجب أن أعود إلى مستر شو ولكن دعني لأريك شيئًا.

وقادني إلى موقف الدراجات حيث فك دراجته وقال:

– أنظر بعناية.

فقلت:

– إنها دراجة من نوع رالي.

– لا أنظر إلى المنفاخ هل يذكرك بشيء؟

ثم ابتسم بإشفاق لعدم فهمي . وركب دراجته وسار إلى حال سبيله واختفى عن نظري وهو متجه إلى شارع شولون حيث مخزن المهملات، وسرت أنا إلى قيادة البوليس لأحصل على الأخبار ثم تذكرت أن الآلة التي

شاهدتها في مخزن المهملات كانت مشكلة حتى تشبه نصف منفاخ للدراجة، وفي خلال ذلك اليوم في طول سايجون وعرضها كانت الدراجات تنفجر حيث حل محل المنفاخ قنابل من البلاستيك ركبت مكان الجزء «العادي» من كل منفاخ وذلك في تمام الساعة الحادية عشرة وهو الميعاد المؤقت لانفجار القنابل.. ماعدا الدراجات التي تلقى البوليس عنها أنباء وأشك أن مصدرها هو مستر هنج وكانت الانفجارات كلها «بسيطة».. فقد حدثت عشرة انفجارات وجرح ستة من الأهالي جروحًا «بسيطة»، وكان زملائي من الصحفيين عدا المراسلين من جريدة الشرق الأقصى الذين سموا الحادث باسم «ثورة غضب» يقولون إنهم لا يستطيعون شغل حيز في جرائدهم لنشر الحادث بأكثر من «اعتبارهم» له شيئًا باعثًا على الفكاهة. وعنوان باسم «قنابل الدراجات» مثير في الصحف، وكان الجميع يلقون اللوم على الشيوعيين في الحادث، وكنت أنا الوحيد الذي كتبت أن إلقاء القنابل كان نوعًا من الاحتجاج من قبل الجنرال ثي، وكان هذا مدعاة لاحتجاج إدارة الجريدة التي أمثلها فالجنرال ثي ليس مهمًا لدرجة الكتابة عنه وأرسلت رسالة اعتذار إلى المستر هنج عن طريق دومنجيز فقد بذلت كل جهدي ورد على مستر هنج ردًا مؤدبًا وكنت لم أذكر إطلاقا لبيل علمي بعلاقته بالجنرال ثي، فقد قلت لنفسي: دعه يلعب بالبلاستيك الذي يستورده فربما شغل ذلك ذهنه عن فونج وعلى كل فقد مررت على جراج المستر موي لأني وجدت نفسي قريبًا منه.

وكان المكان صغيرًا وغير منظم، ورأيت سيارة في وسط المكان وغطاؤها مرفوع كأنها حيوان فاتح فمه في أحد متاحف التاريخ الطبيعي، وكانت الأرض مغطاة بقطع قديمة من الحديد والصناديق القديمة، فأهالي فيتنام لا يلقون بشيء من المهملات مثلهم في ذلك مثل الصينيين الذين يستطيعون أن يطهوا بطة واحدة بستة أشكال مختلفة بدون أن يلقوا حتى برجل واحدة منها. وتعجبت كيف يمكن أن يلقي هؤلاء بالبراميل وقطع الحديد القديمة حتى تصل إلى مخزن مستر هنج، وربما سرقها أحد الموظفين لبيعها بقروش قليلة، أو ربما رشا هنج أحد هؤلاء الموظفين ليحضره له. ولم أر أحدًا في المكان فدخلته، وربما ابتعدوا عن الجراج فترة خوفًا من حضور رجال البوليس، ومن المحتمل أن يكون للمستر هنج إتصالات بإدارة البوليس، ولكن حتى لو كان صحيحًا فمن المستبعد أن البوليس سوف يهتم ويقوم بعمل، فمن وجهة نظرهم يرون أن يترك الأهالي يعتقدون أن القنابل كانت من فعل الشيوعيين، وما عدا السيارة والمخلفات القديمة من الحديد لم يكن هناك ما يرى على الأرض المصنوعة من الأسمنت وكان من الصعب التكهن بأن القنابل قد صنعت في جراج المستر موي، ولم أكن متأكدًا كيف يتيسر لإنسان أن يحول المسحوق الأبيض الذي رأيته في البراميل عند المستر هنج إلى بلاستيك، ولكن من المؤكد أن طريقة تحويله إلى بلاستيك كانت معقدة إلى درجة لا يمكن معها تحويله إلى بلاستيك في هذا المكان. وحتى «طلمبتي» البنزين اللتين في الشارع أمام المحل كانتا تشكوان الإهمال.

ووقفت في المدخل ونظرت إلى الشارع ورأيت تحت الأشجار في وسط الشارع الحلاقين يمارسون عملهم. وشاهدت قطعة من مرآة مثبتة في أحد الأشجار تعكس ضوء الشمس ومرت بي فتاة مرتدية قبعة واسعة وتحمل على كتفيها «سبتين» ثبتا في عمود وهي تسير بسرعة وكان قارئ المستقبل في الشارع قد وجد «زبونًا» وهو رجل عجوز له ذقن أخذ ينظر بصبر نافد إلى قارئ الطالع وهو يقلب بين يديه أوراق اللعب التي يقرأ فيها الطالع. وتساءلت: أي مستقبل في عالم الغيب ثمن الاطلاع عليه قرش صاغ؟

والحياة في شارع السوم حياة مكشوفة. فكل فرد هنا يعرف المستر موي ولكن رجال البوليس لم يكن لديهم المفتاح الذي يجعلهم يولونه ثقتهم وكان هذا هو مستوى الحياة حيث يعرف كل سر من الأسرار. ولكن لم يكن في مقدورك النزول إلى هذا المستوى كما يسهل عليك أن تنزل إلى الشارع. وتذكرت النسوة العجائز اللاتي يثرثرن أمام منزلي فهن كذلك يعرفن عني كل شيء ولكنني لا أعرف ماذا يعملن؟

ودخلت ثانية الجراج، حيث قصدت مكتبًا صغيرًا في نهايته. وهناك وجدت النتيجة السنوية الصينية «العادية». كما شاهدت مكتبًا عليه أوزان مهملة وقائمة بالأسعار وزجاجة من الصمغ و«ماكينة» جمع أرقام ودبابيس للورق وإناء لصنع الشاي وثلاثة فناجين وعديدًا من الأقلام غير المبرية وصورة غير مكتوب عليها لبرج إيفيل. وكان هناك باب مغلقا في

مؤخرة حجرة المكتب غير أن المفتاح كان موجودًا على المكتب بين الأقلام ففتحت الباب ودخلت فوجدت نفسي في سقيفة في حجم الجاراج وكانت تحتوي على قطعة واحدة من الآلات بدت لأول وهلة أنها كقفص من الأسلاك والعصى المتشابكة وبداخلها «تعاليق» كأنما هي قفص أعد لطائر غير ذي جناحين.

وخيل إليَ أنها مربوطة بقطعة قديمة من الثياب وكان يبدو أن الأشرطة القديمة قد استخدمها المستر موي قبل ذلك في التنظيف ووجدت على الأشرطة إسم صانعها في مدينة ليون وأرقامًا مسلسلة عليها ولا أعرف معنى الرقم المسلسل وأدرت التيار الكهربي ودبت الحياة في «الماكينة» القديمة وكانت العصى المركبة في الآلة لها غرض. وهي أشبه برجل عجوز يستجمع كل قواه الباقية ليضرب بها معصمه إلى أسفل وبدت لي كأنها آلة للضغط أو الطباعة وفي الهند الصينية حيث لا «يعتبر» شيء غير ذي منفعة برغم مرور سنوات وسنوات على اختراعه فإن هذه الآلة القديمة التي عفا عليها الزمن كانت لا تزال مستعملة. ونظرت إلى الآلة بدقة فوجدت بها بقايا مسحوق أبيض. وفكرت في «ديولكتون» وشيء قريب الشبه من اللبن ولم يكن هناك في المكان أي برميل أو عصى.

وعدت ثانية إلى حجرة المكتب والجراج وأحسست برغبتي في مداعبة السيارة القديمة بالربت عليها. فأمامها مدة كبيرة تنتظرها ولكن في يوم ما سوف تستخدم في صنع شيء .. أما المستر موي ومعاونوه فهم الآن في

مكان ما وسط حقول الأرز متجهون إلى الجبال المقدسة حيث يوجد مركز قيادة الجنرال «ثي» وتخيلت إنني بعيد عن الجراح في مكان ما وسط حقول الأرز حيث إلتجأت إلى البرج في تلك الليلة وإنني أنادي مستر موي الذي أدار رأسه إليَ من وسط «سنابل» الأرز.

وعدت سيرًا إلى المنزل حيث وجدت النسوة العجائز اللاتي ما كدن يرينني حتى أخذن في ثرثرتهن المعتادة التي لا أفهم لها معنى كعدم فهمي لثرثرة الطيور ولم تكن فونج بالمنزل بل وجدت مذكرة منها تقول إنها ذهبت عند أختها وتمددت على السرير فكنت لا أزال أشعر بالتعب بسرعة منذ جرحي في تلك الليلة في البرج وعندما استيقظت وجدت ساعتي تشير إلى الواحدة وخمس وعشرين دقيقة وأدرت رأسي متوقعًا أن أجد فونج نائمة ولكن الوسادة كانت خالية ولابد أنها غيرت غطاء المخدة في هذا اليوم حيث أن برودة «الغسيل» كانت لا تزال ظاهرة عليه وقمت وتوجهت إلى الدرج الذي تضع فيه «الإيشاربات» الخاصة بها فلم أجدها.

وتوجهت ناحية رف المكتب، فلم أجد صورة العائلة المالكة البريطانية كذلك فلقد أخذت مهرها معها. وفي لحظات الصدمة يكون هناك ألم قليل. فقد بدأ الألم حوالي الساعة الثالثة عندما شرعت أرسم خطوط الحياة الجديدة التي عليَ أن أحياها وأستعيد ذكريات الماضي استعدادًا لمحوها. وحاولت استعادة الذكريات غير السعيدة فلقد كنت متمرنًا ولقد مرت بي هذه التجربة من قبل وأعرف ماذا يجب أن أفعله؟

ولكني كنت أكثر تقدمًا في السن وأحسست أنه ليس لدي النشاط الكافي لإعادة البناء من جديد.

وتوجهت إلى المفوضية الأمريكية وسألت عن بيل وكان من الضروري أن أملأ إستمارة على الباب وأقدمها لرجل البوليس الحربي الذي قال لي:

– أنت لم تكتب سبب الزيارة.

فقلت له:

– إنه يعرف.

فقال:

– هل حدد لك ميعادًا من قبل؟

فقلت:

– تستطيع أن نقول ذلك لو أحببت.

فقال:

– إن هذا يبدو لك سخيفًا ولكن علينا أن نكون في منتهى الحذر فكثير من الأشخاص الشواذ يحضرون إلى هنا.

فقلت:

– لقد سمعت ذلك.

فحرك «اللبانة» التي يمضغها إلى الناحية الأخرى من فمه ودخل

المصعد وانتظرت ولم يكن لديَ فكرة عما سأقوله لبيل. فهذا شيء لم أقم به من قبل وعاد رجل البوليس وقال:

– أعتقد أنه يمكنك الصعود إلى الغرفة ١٢أ الدور الأول.

وعندما دخلت الغرفة رأيت أن بيل لم يكن موجودًا. وكان جو جالسًا خلف المكتب وجو هو الملحق الإقتصادي. ولم أستطع تذكر اسمه الأول.. وأخذت أخت فونج ترقبني من خلف «ماكينة» كتابة. وسألت نفسي: هل هذه النظرة التي تحدجني بها هي نظرة الانتصار؟

وقال جو:

– تعال. تعال يا توم.. إنني مسرور لرؤيتك كيف حال ساقك؟ ونحن لم نتعود زيارتك لنا في مكتبنا المتواضع. خذ كرسيًا وقل لي: ما هو رأيك في سير الهجوم الجديد على القوات الثائرة؟ ولقد رأيت جرانجر في الكونتننتال البارحة وقد سافر إلى الشمال مرة أخرى إن هذا الولد مهتم بعمله. ما هي الشائعات في البلد يا توم. فأنتم معشر الصحفيين تجعلون آذانكم مفتوحة لكل شيء. آسف بخصوص ساقك. فقد قال لي آلدن.

فقلت:

– أين بيل؟

قال:

– إنه ليس في المكتب هذا الصباح. وأعتقد أنه في منزله. فهو يقوم بعمل كثير في منزله.

– أنا أعرف أي عمل يقوم به في منزله.

– إنه ولد «كفء» ماذا تقول؟

فقلت:

– على أي حال. أنا أعرف شيئًا مما يقوم به في منزله.

قال:

– أنا لا افهم يا توم. فأنا جو البطيء – وهذا هو طبعي–ودائمًا كنت هكذا وسوف أظل هكذا.

قلت:

– إنه مع صديقتي. أخت التايبست التي تعمل لديك.

قال:

– أنا لا أعرف ماذا تقصد؟

فقلت وأنا أومئ إلى أختها:

– إسألها. لقد رتبت هي ذلك. لقد أخذ مني بيل صديقتي.

فقال:

– إسمع يا فولر. لقد ظننت أنك قدمت من أجل عمل. وأنت تعلم أنه لا يمكننا الكلام في مثل هذا في المكتب.

قلت:

– لقد جئت لمقابلة بيل وأعتقد أنه مختبئ.

قال:

– أنت آخر رجل يمكن أن يقول هذا عن بيل بعد ما فعله من أجلك.

قلت:

– آه. طبعًا طبعًا. لقد أنقذ حياتي. أليس كذلك. ولكنني لم أسأله قط ذلك.

قال:

– لقد أنقذ حياتك مع تعريض حياته للخطر. فإن لهذا الشاب قوة وخلقًا.

فقلت:

– أنا لا أهتم بقوته الملعونة.

قال:

– إن علينا أن نؤدي عملنا. وهناك تقرير عن إنتاج المطاط..

قلت:

– لا تقلق. فأنا ذاهب. ولكن قل لبيل إذا خاطبك بالتليفون إنني قد جئت وقد يظن أنه من الأدب أن يرد لي الزيارة.

ثم قلت لأخت فونج:

– أرجو أن تكوني قد أحضرت شهودًا لحضور التسوية النهائية لموضوع أختك وأحسب أنك أحضرت القنصل الأمريكي ومندوبًا من الكنيسة لكي يشهدوا على انضمامها لبيل.

وخرجت إلى الممر ووجدت بابًا مكتوبًا عليه «للرجال» فدخلت وأغلقت على نفسي الباب وأسندت رأسي إلى الحائط البارد وأخذت أبكي. ولم يكن قد سبق لي أن بكيت قبل الآن وحتى «دورات المياه» عند الأمريكيين كانت مكيفة الهواء. وسرعان ما جفف الهواء المكيف الدموع في عيني كما جفت الغصة في فمي والألم في جسدي.

وتركت الأمور في يد «دومنجيز» ورحلت إلى الشمال. ففي مدينة هالسبونج كان لي أصدقاء في سرب الطيران «ماسكوني» وكنت أقضي ساعات في بار المطار أو ألعب لعبة «فونج» على الحشيش الأخضر في الخارج، ورسميًا فإنني كنت مقيمًا في الجبهة وبذلك كنت على قدم المساواة مع جرانجر ولكن وجودي في الشمال لم يكن ذا فائدة تذكر لجريدتي مثلما حدث في «فات ديم» ولكن إذا تعرض المرء للكتابة عن الحرب فإن إحترام النفس يتطلب أن يشارك بين حين وآخر في أخطارها، ولم يكن الأمر سهلًا في المشاركة في أخطار الحرب. فقد جاءت الأوامر من هانوي بألا أصحب

الطيارين في غاراتهم إلا إذا كانت غارات أفقية تكون فيها الطائرة فوق مرمى المدافع الرشاشة.

وهي رحلة لا تعدو أن تكون رحلة بالأتوبيس في سلامتها وأمنها عدا ما قد يصيب الطائرة من خطأ في القيادة أو إصابة الماكينة بعطب، وكنا نطير على حسب جدول معين ونعود على حسب جدول معين. أما حمولة الطائرة من القنابل فكانت تلقى من الارتفاع الشاهق على أحد «الكباري» أو المستودعات وتتصاعد أعمدة الدخان ثم تعود في الميعاد نفسه لنتناول فاتحات «الشهية» قبل تناول الطعام وفي صبيحة أحد الأيام كنا في ميس الضباط في البلدة وكنت أتناول البراندي مع الصودا بصحبة ضابط شاب كان يرغب رغبة شديدة في زيارة البلدة عندما جاءت الأوامر بالقيام بطائرة وسألني:

– هل تحب أن تأتي معي؟

فقلت:

– نعم.

فحتى الغارات الأفقية كانت وسيلة لقتل الوقت وقتل الأفكار. وبينما كنا متجهين إلى المطار في سيارة قال لي:

– إن هذه غارة رأسية.

فقلت له:

– كنت أظن أنني ممنوع من المصاحبة في الغارات الرأسية.

قال:

– لا بأس. ما دمت لا تكتب شيئًا عنها. وسوف يمكنك في هذه الغارة رؤية جزء من البلاد مجاور للصين لم تره قبل ذلك.

فقلت:

– لقد كنت أعتقد أن الأمور هادئة في هذا الجزء من البلاد وأن الفرنسيين مسيطرون هناك سيطرة تامة.

فقال:

– لقد كان هذا فيما مضى. لقد احتل الفيتناميون هذا المكان منذ يومين ورجال البارشوت التابعون لنا على بعد عدة ساعات من المكان ونحن نريد أن يبقى الفيتناميون مختبئين حتى يتيسر لرجال البارشوت إعادة إحتلال المواقع. وهذا يعني الهجوم الغاطس والضرب بالمدافع الرشاشة. ونحن ليس لدينا سوى طائرتين للقيام بالمهمة. هل شاهدت القذف المنقض قبل ذلك؟

فقلت له:

– لا.

قال:

– إنها عملية غير مريحة إذا لم تكن قد تعودتها.

وكان سرب «ماسكوني» لا يملك إلا طائرات قاذفة صغيرة من طراز ب ٢٦ – وكان الفرنسيون يطلقون عليها إسم «العاهرة» وذلك لقصر أجنحتها وعدم وجود معين مرئي لها في طيرانها. وركبت الطائرة خلف الملاح فوق كرسي لا يزيد على كرسي الدراجة وركبتي ملتصقة بظهر ملاح الطائرة وصعدت بنا الطائرة ببطء فوق النهر الأحمر، وكان النهر الأحمر في هذه الساعة لونه أحمر فعلًا. ونظرنا إلى النهر كما سبق أن نظر إليه مستكشفه الأول من مئات السنين في وقت الشفق وقد خضبت الشمس الماء بين الضفتين بلونها الشبيه بلون الدم، وعلى ارتفاع تسعة آلاف قدم تحولنا ناحية النهر الأسود. وكان فعلًا لونه أسود مملوء بالظلال وكان منظره جليلًا عظيمًا وقد أحاطت به التلال والغابات والمهاوي. ولو أسقطنا فصيلة من الرجال في هذا الفضاء الشاسع لكنا كمن أسقط بضعة قروش وسط حقل واسع ورأينا أمامنا طائرة صغيرة. وحلقنا مرتين حول أحد الأبراج للحراسة وحول القرية الخضراء، واستدار إلى الطيار وغمز بعينيه.

وكان اسمه «ترون» وأمامه في عجلة قيادة الطائرة كانت توجد الأزرار التي تطلق المدافع الرشاشة وتقذف القنابل وأحسست بأحشائي تتقلب داخل بطني ونحن نتخذ مركزنا لبدء القذف الغاطس وهو الإحساس نفسه الذي يخامر الأمر عند أول خطوة يتعلمها في الرقص أو في أول مأدبة عشاء يحضرها أو أول حب ينبض به قلبه، وتذكرت يوم السباق الكبير في

ويمبلي عندما لا يكون هناك فائدة من التراجع وتحس بأنك موكل بخبرتك. واستطعت أن أقرأ على مؤشر الإرتفاع أننا على ارتفاع ثلاثة آلاف متر عندما بدأنا الإنقضاض وأصبحت كل أعصابنا مشدودة والتصقت بظهر الملاح نتيجة لإنقضاض الطائرة وأحسست كأن شيئًا ثقيلًا جدًا يضغط على صدري. ولم أنتبه إلى القنابل وهي تقذف أو إلى صوت المدافع الرشاشة وهي تنطلق من الطائرة إلى الأرض وإمتلأت الطائرة برائحة البارود وإنزاح الضغط من فوق صدري عندما أخذنا في الإرتفاع ثانية. وشعرت كأن معدتي قد سقطت من ناحية الأرض.

ولمدة أربعين ثانية انمحت ذكرى بيل من خاطري وحتى شعوري بالوحدة لم يعد موجودًا. وشاهدت الدخان ينبعث من الحرائق التي شبت نتيجة للقذف من النافذة الجانبية للطائرة ونحن نرتفع في هيئة قوس، وقبل أن نبدأ الإنقضاض للمرة الثانية شعرت بالخوف من ظهوري بمظهر الخائف والخوف من أن يصيبني الغشيان فألفظ ما في أحشائي على ظهر الملاح، والخوف من ألا تحتمل رئتاي الضعيفتان من الكبر كل هذا الضغط عليهما. وبعد الإنقضاض العاشر كان كل ما أشعر به هو الضيق من أن المسألة قد طالت أكثر مما يجب وأن الوقت قد حان لنعود من المهمة.

ومرة أخرى هربت الطائرة من نيران المدافع الرشاشة وارتفعت أعمدة الدخان وكانت القرية التي نقذفها محاطة بالجبال من كل ناحية وكان علينا في كل مرة نضربها أن نقترب من خلال ثغرة معينة في هذه الجبال. ولم يكن

أمامنا طريق آخر لنغير زاوية هجومنا. وعندما قمنا بالإنقضاض الرابع عشر شعرت بأني قد تخلصت من الخوف من الظهور بمظهر الضعفاء. وفكرت في أن كل ما عليهم لكي يصيبونا هو وضع مدفع ليغطي هذه الثغرة التي تهاجمهم منها. وربما لم يكن لديهم مدافع كافة. وإنتهينا من القذف الذي استغرق أربعين دقيقة كنت خلالها حرًا من أفكاري الخاصة وكانت الشمس قد غربت عندما استدرنا عائدين إلى القاعدة ولم يعد النهر الأسود أسود في لونه وتحول لون النهر الأحمر إلى لون الذهب ثم إنقضت الطائرة مرة أخرى ناحية النهر وهي تكاد تزحف فوق حقول الأرز وقد إتجهت مقدمتها كما تتجه الرصاصة المنطلقة ناحية زورق في الماء وإنطلق المدفع مرة واحدة وتناثرت أشلاء الزورق الممزقة، ولم ننظر لكي نرى ضحايانا يصارعون الماء في سبيل البقاء بل إرتفعت بنا الطائرة لتعود إلى القاعدة وحل بي الشعور نفسه الذي حل بي عندما رأيت الجثث تملأ الماء في «فات ديم» وقلت لنفسي: «إني أكره الحرب» فلقد كان هجومنا على الزورق مرعبًا. فقد كنا مارين فحسب في طريق العودة وفجأة طلقة واحدة من المدفع وأصبح الزورق في خبر كان. ولم يكن هناك من يرد علينا النيران وتركناهم يصارعون الموت من بقي منهم وأضفنا إلى القتلى في هذا اليوم حصتنا منهم ووضعت الميكروفون على أذني وقال لي الكابتن «ترون»:

– سوف نقوم بجولة صغيرة فإن منظر شمس المغيب رائعة على الحقول ويجب ألا تفوتك.

وقال ذلك بعطف، كما لو كان مضيفًا يريد أن يطلع ضيفه على جمال ضيعته. وطرنا مسافة مائة ميل نتبع الشمس في غروبها.

وفي مهنته فإن الراحة بالنسبة له لا تذهب إلى أبعد من ذلك الذهاب إلى حان للشرب. واستلقينا كل منا في حجرة صغيرة منخفضة الجدار وسط صف من الحجرات المماثلة ولم تكن

حجرة بالمعنى المفهوم بل مكان على قدر اضطجاع لمرء. به حائطان لا يزيد كل منهما على ثلاثين سنتيمتر وأعد صاحب المحل الصيني الشراب. ولم أكن قد شربت مند تركتني فونج. وعلى مقربة منا كان هناك إمرأة ذات ساقين طويلتين رائعتين كأنهما لوحة من لوحات ماتيس قد انتهت من الشراب وراحت تطالع في مجلة نسوية وقد جمعت ساقيها على صدرها وكان بجوارها رجلان صينيان في منتصف العمر يتناولان الشاي يتناقشان في شئون العمل وبجوارهما كئوس الشراب التي انتهيا منها وقلت «لترون»:

– هذا الزورق.. هل كان هناك ما يبرر ضربه؟

فقال ترون:

– من يدري.. ففي هذا المكان من النهر لدينا تعليمات بضرب كل ما نراه.

وشربت أول كأس، وقال «ترون»:

– إن ما حدث اليوم ليس أسوأ ما حدث لي ففوق القرية كان من الممكن أن يسقطونا. وكان الخطر بالنسبة لنا كالخطر بالنسبة لهم والذي لا أقبله هو القذف بقنابل النابالم من ارتفاع ٣٠٠٠ قدم ونحن آمنون في أثناء القذف. هل رأيت الغابة وهي تحترق؟ الله وحده يعلم ما الذي يمكن أن تراه من فوق الأرض. فالمساكين تحرقهم القنابل أحياء وقنابل النابالم يسري لهيبها كما يسري الماء.

فقلت له:

– وهذا الزورق؟

قال:

– نعم هذا الزورق كذلك.

وأخذ يرقبني وأنا أمد يدي لأتناول الكأس. وقال:

– أنا أحسدك على وسائلك للهرب من الحقيقة.

فقلت له:

– أنت لا تعلم ماذا أحاول أن أهرب منه. إنها ليست الحرب فهي لا تهمني في شيء وأنا غير مشترك فيها؟

– سوف تشاركون فيها جميعًا في يوم ما.

قلت:

– ليس أنا.

فقال:

– أنت ما زلت تعرج.

قلت:

– إن لهم الحق في إطلاق الرصاص عليَ. ولكنهم لم يكونوا يفعلون ذاك بل كانوا يهدمون برجًا للحراسة. وعلى المرء أن يتجنب فصائل الهدم حتى ولو كانوا يعملون في ميدان بيكاديلي.

– يومًا ما سوف يحدث شيء وتنضم إلى أحد الجانبين.

– لا.. فأنا عائد إلى انجلترا.

قال:

– بسبب هذه الصورة التي أريتني إياها مرة!

– لا.. لقد مزقت هذه الصورة. فقد تركتني صاحبتها.

قال:

– أنا آسف.

قلت:

– هكذا تحدث الأشياء. فالإنسان يترك الناس أحيانًا. ثم يتحول التيار فيتركونه هم. وفي رأيي أن هذا يجعلني أعتقد في العدالة.

قال:

– أنا كذلك. ففي أول مرة أسقطت فيها قنابل النابالم لم أفكر في أن هذه القرية التي ولدت فيها. وعلى القرية التي يعيش فيها مسيو «ديبوا» صديق أبي؟ وكذلك الخباز. فقد كنت شغوفًا جدًا بخباز القرية وهو الآن يعدو وسط لهيب نيران القنابل التي ألقيتها. إن رجال حكومة فيشي لم يضربوا بلادهم بالقنابل ولكن أشعر بأني أسوأ حالًا منهم.

قلت:

– ومع ذلك فأنت تواصل عملك الذي تكرهه.

قال:

– إن ما أشعر به أن هي إلا حالات عارضة عندما أستخدم النابالم. وباقي الوقت أشعر بأني أدافع عن أوربا. وأنت لا تشعر بأن رجال الجانب الآخر يفعلون أفعالًا في الدرجة نفسها من الشدة وعندما تراجعوا عن هانوي سنة ١٩٤٦ لقد عاقبوا المئات من أبناء جلدتهم الذين ظنوا أنهم قد عاونونا.

قلت:

– وبسبب هذا فأنا لا أريد أن أشارك في هذه الحرب.

– إن المسألة ليست مسألة عقل أو عدالة. فنحن جميعًا نشارك في الأمر تحت ظروف عاطفية معينة ثم نجد أنفسنا غير قادرين على الخلاص والحرب والحب منذ القدم تجدهما متقاربين.

ونظر بحزن إلى حيث ترقد المرأة التي تبدو كلوحة من لوحات ماتيس. وقال:

- أنا لا أريد أن يتغير الأمر عما هو عليه. فهناك فتاة أعرفها أصبحت مشتركة في الأمر بسبب والديها فالأم من أهل البلاد والأب فرنسي. وما الذي يحمله المستقبل لها عندما يسقط الميناء في أيدي العدو. إن فرنسا ليست إلا نصف وطن لها.

فسألته:

- وهل سيسقط الميناء؟

- إنك صحفي.. وأنت تعرف أكثر مني أننا لن نستطيع أن نفوز وأنت تعلم أن الطريق إلى هانوي يقطع كل ليلة وتزرع فيه الألغام. وأنت تعلم أننا نفقد في كل سنة دفعة كاملة من خريجي كلية سان سير.

وكنا قد أوشكنا أن نهزم سنة ١٩٥٠ ولقد أمكن الجنرال دي لاترتاسيني أن يمنحنا سنتين من الفخار. ذلك كل ما في الأمر. وعلينا أن نواصل القتال حتى يأمرنا السياسيون بالتوقف.ومن المحتمل أن يتفقوا على الأسس التي كان من الممكن أن يتفقوا عليها في «البداية» جاعلين من كل هذه السنوات عبثًا لا طائل تحته.

وكان وجهه القبيح الذي غمز لي به قبل إنقضاضه على هدفه يحمل نوعًا من شدة المحترف كأنه قناع من أقنعة عيد الميلاد حيث تبدو عينا الطفل من خلال ثقوب فيه.

وقال:

– أنت لا تستطيع أن تفهم هذا العبث يا فولر لأنك لست واحد منا.

قلت:

– إن هناك أشياء أخرى في حياة الإنسان تجعل من السنوات ومرورها عبثًا لا طائل وراءه.

فوضع يده على ركبتي بنوع من العطف والحماية كأنما هو الأكبر سنًا وقال:

– خذها معك إلى الوطن.

الفصل الخامس

لقد كان الأمر غريبًا عند عودتي إلى سايجون دون أن يكون أحد في انتظاري، وفي المطار تمنيت لو أن هناك مكانًا آخر أطلب من التاكسي أن يوصلني إليه غير سكني في شارع كاتينات. وقلت لنفسي: «هل ألمي أصبح أقل مما كان عليه قبل رحيلي؟». وحاولت أن أجمل نفسي تعتقد ذلك. وعندما وصلت إلى المنزل لاحظت أن الباب مفتوح وملأ نفسي شعور بالأمل الكاذب وحتى أصل من الباب كان من الممكن أن يظل الأمر حيًا. وسمعت صوت كرسي متحرك وعندما وصلت إلى الباب رأيت زوجًا من الأحذية لغير إمرأة ودخلت بسرعة وكان هو «بيل» الذي رفع جسمه الضخم من فوق الكرسي الذي اعتادت فونج أن تجلس فيه وقال:

– هالو. توماس.

– هالو بيل .. كيف دخلت هنا؟.

فقال:

– لقد قابلت دومنجيز الذي كان آتيًا ببريدك وطلبت منه أن يتركني أنتظر.

– هل نسيت فونج شيئًا؟

– لا.. ولكن چو قال لي إنك ذهبت إلى المفوضية وفكرت في أنه أسهل أن تتكلم هنا.

قلت:

- نتكلم عن ماذا؟

فبدا عليه أنه قد فقد تفكيره كصبي طلب منه أن يتكلم في إحتفال في المدرسة ففقد القدرة على تخير الكلام اللائق، ثم قال:

- لقد كنت مسافرًا.

- نعم. وأنت.

- آه.. إني كنت أتنقل هنا وهناك.

- أمازلت تلعب بالبلاستك؟

فابتسم إبتسامة غير سعيدة وقال:

- إن خطاباتك موجودة هنا.

وكنت أستطيع أن أرى من أول نظرة أنه ليس هناك شيء يثير إهتمامي فخطاب من الجريدة في لندن وخطابات يبدو أنها مطالبات بسداد ديون عليَ. وخطاب آخر من المصرف الذي أتعامل معه. وقلت لبيل:

- كيف حال فونج؟

فقال:

- أوه.. إنها بخير.

وضم شفتيه كما لو كان قد تكلم أكثر مما يجب. وقلت له:

– أجلس يا بيل وأسمح لي بأن أنظر في البريد فهذا الخطاب من إدارة الجريدة.

فتحت الخطاب وكان من رئيس التحرير ويقول:

– إنه راعى ما جاء في خطابي الأخير وبالنسبة لتأزم الموقف وتعقده في الهند الصينية بعد موت الجنرال دي لاثر وتراجع القوات الفرنسية من «هوابنه» فإنه يتفق معي في إقتراحاتى وأنه قد عين محررًا للشئون الخارجية بالجريدة بصفة مؤقتة وأنه يوافق على بقائي في الهند الصينية مدة عام على الأقل.

وقال في خطابه: «سوف يبقى مقعد المحرر الخارجي دافئًا في إنتظارك».

وكان يعتقد أنني أهتم بالوظيفة التي عرضها عليَ بالجريدة فجلست أمام بيل وقرأت الخطاب مرة أخرى الذي وصل متأخرًا بعض الشيء. ولفترة وجيزة كان لديَ شعور من أستيقظ لتوه قبل أن يتذكر الأحداث. وقال بيل:

– هل الأخبار سيئة؟

– لا..

وقلت لنفسي: إن الأمر لن يكون فيه فرق على كل حال، فإن الاقامة لمدة سنة لا يمكن أن تساوي عرضًا بالزواج. وسألته:

- هل تزوجت بعد؟

فقال وقد أحمر وجهه وكان ذا قدرة عجيبة على الخجل:

- لا.. والحقيقة أنني أحاول الحصول على إجازة خاصة ثم يمكننا أن نتزوج في الوطن زواجًا صحيحًا.

وقلت:

- هل يكون الزواج أكثر صحة لو تزوجتما في الوطن؟.

فقال:

- حسنًا.. إنه من الصعب أن أقول لك أنت هذه الأشياء يا توماس ولكنه نوع من الاحترام. فإن أبي وأمي سوف يكونان حاضرين فهي فرد جديد سينضم للعائلة. وهذا شيء مهم جدًا بالسنة الماضي.

فقلت له:

- الماضي.

- أنت تعرف ماذا أعني؟ فأنا لا أريد أن أتركها خلفي وقد لوثتها شائبة.

- هل ستتركها هناك عند عودتك؟

- أعتقد هذا.. فإن أمي سيدة رائعة. وعليها أن تريها المكان وتقدمها إلى الجيران والمعارف. وأنت تعلم ذلك. إنه نوع من إدماجها في

الحياة وهي بذلك تساعدها على إقامة بيت لي.

ولم أكن أعرف هل أرثي لفونج أولًا؟ فقد كانت تأمل رؤية ناطحات السحاب، وتمثال الحرية. ولكن لم يكن لديها فكرة عما يمكن أن تلاقيه هناك.. البروفسور ومسز بيل وأناقة السيدات. وهل سيعلمونها لعبة «الكافاستا». وتذكرت رؤيتي لها في أول ليلة في ملهى «العالم الكبير» في ثوبها الأبيض وهي تتحرك برشاقة وقد بلغت من العمر ثمانية عشر ربيعًا. وفكرت فيها منذ شهر واحد وهي تساوم البائع على ثمن اللحم في محل الجزارة الذي بشارع «السوم» هل ستحب المحال الصغيرة البيضاء الخاصة «بالبقالة» في «نيوإنجلند» بأمريكا حيث تلف حتى الخضراوات في ورقة سلوفان. ربما يعجبها ذلك. وبغرابة وجدت نفسي أقول له ما كان بيل يقوله لي منذ شهر مضى:

– كن صبورًا معها يا بيل وسهلًا. ولا تحاول أن تفرض عليها الأوضاع. فهي قد تجرح وتتألم مثلك ومثلي تمامًا.

– بالطبع.. بالطبع يا توماس.

– إنها تبدو صغيرة وقابلة للكسر وهي ليست كنسائنا في الغرب ولكن لا تعاملها على أنها شيء للزينة.

– إن هذا مضحك يا توماس. كيف تحولت الأشياء؟ فقد كنت أخشى هذه المقابلة وظننت أنك ستكون عنيفًا.

– لقد كان لدي الوقت للتفكير هناك في الشمال. وكانت هناك امرأة. وإنه لشيء جميل أن تذهب معك فونج. وربما كنت أنا تركتها مع شخص مثل جرانجر.

– وهل نستطيع أن نظل أصدقاء يا توماس؟

– نعم.. بالطبع.. ما عدا أني أفضل ألا أرى فونج ثانية. وهنا ما يكفي لتذكيري بها ويجب أن أبحث عن بيت آخر عندما يكون لدي الوقت.

فاعتدل في جلسته ثم وقف وقال:

– أنا في غاية السرور يا توماس. ولا أستطيع أن أعبر لك عن سروري. ولقد قلت ذلك قبل هذه المرة وهو أنني كنت أود لو كان شخصًا غيرك.

– أنا مسرور. إنه أنت يا بيل.

وكانت المقابلة على غير ما توقعت. وكانت سذاجته التي تضايقني منه قد فعلت فعلها في نفسي. وبحكم من أعماق نفسي قد انتهيت إلى صفه، فلقد قارنت مثاليته وأفكاره غير الناضجة القائمة على أعمال يورك هاردنج بواقعيتي الجافة، فوجدت أنه برغم معرفتي للحقائق فإن له الحق كذلك في أن يكون شابًا وأن يخطئ وأنه أفضل مني بالنسبة لفتاة صغيرة تقضي معه حياتها.

وتصافحنا. ولكن نوعًا من الخوف لم يكتمل بعد في نفسي جعلني أصحبه إلى أول السلم وأناديه. وربما كان هناك في أعماق الإنسان متنبئ بالأحداث مثلما يكون في نفسه حكم على الأشياء حيث يقرر حكمه الصحيح على الأفعال، وقلت له:

- بيل.. لا تعتمد كثيرًا على أقوال يورك هاردنج.

فرفع بصره إلى من أول درجة في السلم وقال:

- يورك!

فقلت:

- إننا نحن - الإنجليز المستعمرين القدامى- الذين سبقوكم في هذا المجال يا بيل. وقد تعلمنا حقيقة واحدة وهي ألا يلعب بأعواد الثقاب وهذه القوة الثالثة التي تتكلم عنها جاءت من خلال صفحات كتاب ليس إلا.

وبدا لي كأنه ينظر إليَ من خلال فتحة صندوق بريد ليرى من الذي يتكلم وبعد أن رآه أغلق غطاء فتحة الصندوق لكيلا يرى المتكلم.

وقال وعيناه غير مرئيتين:

- أنا لا أعرف ماذا تقصد يا توماس؟

- قنابل الدراجات هذه. لقد كانت مزاحًا جميلًا برغم أن رجلًا فقد قدمه. ولكنك يا بيل لا يمكنك أن تثق بالجنرال ثي. فإن أمثاله لن ينقذوا

الشرق من الشيوعيين ونحن نعرف أمثالهم.

فقال:

– نحن!

فقلت له:

– الاستعماريون القدامى.

– كنت أظن أنك لا تنضم إلى أحد الطرفين.

– أنا لا أنضم إلى أحدهما يا بيل. ولكن إذا أراد شخص في المفوضية أن يعقد الأمور فليكن ذلك «چو». إذهب إلى الوطن مع فونج وإنس القوة الثالثة.

فقال:

– إنني بالطبع أقدر نصائحك وسوف أراك عن قريب.

– أعتقد هذا.

ومرت الأسابيع ولم أستطع أن أعثر على سكن جديد. وليس ذلك بسبب أنه لم يكن لديَ وقت فإن الأزمة السنوية للحرب قد مرت. وخيم الجو الرطب الحار على مناطق الشمال وتراجع الفرنسيون عن «هوابنه» وحملة الأرز انتهت لا تونكين. وكان بإستطاعة دومنجيز أن يرقب كل ما يجري في الجنوب. وأخيرًا تمكنت من حمل نفسي على رؤية مسكن جديد

في بناء حديث في الناحية الأخرى من شارع كاتينات ويجاور الكونتننتال. وهو بناء أقيم زمن معرض باريس الدولي في سنة ٩٣٤ وكان قد بناه أحد زراعي المطاط كمقر له في سايجون وكان يريد بيعه بكل ما يحويه من أثاث ومعدات.

وكان بالمسكن لوحات محفورة من معروضات صالون باريس بين سنة ١٨٨٠ – ١٩٠٠، وكانت أحسن اللوحات في المجموعة لوحة تمثل إمرأة ذات صدر ممتلئ «وتسريحة» غريبة للشعر، ورداء صفير حول نصفها الأسفل يكشف عن الجزء الأكبر من بطنها. وفي غرفة الحمام كان المالك الأصلي للمنزل أكثر جرأة بمجموعته من الأرواب. وقلت له:

– هل تحب الفن؟

وتراجع الرجل كأنه زميل مشترك في مؤامرة. وكان بدين ذا شارب أسود وشعره خفيف. ثم قال:

– إن أحسن صوري في باريس.

ورأيت «طفاية» للسجائر بالغة الطول، في حجرة الجلوس وهي تمثل امرأة عارية «والطفاية» محفورة في شعرها. كما شاهدت تحفة صينية تمثل فتيات عاريات يحتضن نمورًا. وفتاة نصفها الأعلى من جسدها عار وهي تركب دراجة. وفي غرفة النوم وفي مواجهة سريره الضخم علقت لوحة زيتية تمثل فتاتين عاريتين تنامان معًا. وسألته عن ثمن المسكن بدون التحف ولكنه لم يرض إلا ببيع الإثنين معًا. وسألني:

– أأنت من هواة جمع التحف؟

فقلت:

– لا..

فقال:

– إن لديَ مجموعة من الكتب أستطيع أن أتركها برغم أني سوف آخذ بعضها إلى فرنسا.

وفتح مكتبة لها «واجهة» زجاجية وأخرج منها مجموعة فاخرة من المجلات مثل «أفرديت» و«نانا» ومجموعة أخرى من الكتب.

وقال:

– لو أنك عشت في الأقاليم الحارة بمفردك لعرفت أن مثل هذه المجموعات تعد صحبة يقطع الإنسان بها الوقت.

وفكرت في فونج بسبب بعدها عني. وقلت للرجل:

– لا أعتقد أن الجريدة التي أعمل فيها تسمح لي بشراء مجموعة فنية.

فقال:

– إن المجموعة لن تذكر في الايصال.

وكنت مسرورًا لأن بيل لم ير هذا الرجل. ولم يكن بيل في حاجة إلى

مقت أشد للاستعماريين القدامى حتى يراه.

وعندما خرجت من المنزل كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف، وتوجهت إلى أحد المقاهي لتناول قدح من البيرة. وكان المحل الذي قصدته مجمعًا للنساء الأوربيات والأمريكيات في المدينة وكنت متأكدًا من أنني لن أرى فونج هناك. بل كنت أعرف بالتأكيد أين تكون فونج في مثل هذا الوقت من النهار؟ ولم تكن هي بالفتاة التي تغير من «عاداتها» ولذلك فإني عبرت الطريق لأتجنب محل بيع اللبن حيث تشرب مشروبها المفضل من الشكولاتة المثلجة في هذا الوقت من النهار وجلست على المنضدة المجاورة فتاتان أمريكيتان، وهما في غاية الأناقة والنظافة برغم الحر اللافح ويتناولان الآيس كريم، وكانت كل منهما تحمل حقيبة على كتفها الأيسر وعلى كل حقيبة صورة نسر من النحاس –أما سيقانهما فكانت طويلة ورشيقة وأخذتا تتناولان الآيس كريم وقد ركزنا إهتمامهما فيه كأنهما تجريان تجربة في أحد معامل الكليات. وساءلت نفسي: هل هما من زميلات بيل؟ فلقد كانتا رائعتين ووددت لو تمكنت من ترحيلهما إلى الوطن.. وانتهتا من تناول الآيس كريم ونظرت أحداهما إلى ساعتها وقالت:

– يحسن بنا أن تذهب لكي نكون في الجانب الآمن.

وتعجبت أي ميعاد هما مرتبطتان به. وقالت إحداهما:

– إن وارن قال: أنه يجب ألا نتأخر عن الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة.

فردت الأخرى:

– لقد فات الوقت.

– إن في البقاء لمتعة. وأنا لا أعرف عن حقيقة الأمر شيئًا.. هل تعرفين أنت؟

– ليس بالضبط.. ولكن وارن قال يحسن بنا ألا نفعل.

– هل تعتقدين أنها مظاهرة؟

وقالت الأخرى بألم ظاهر كسائحة رأت الكثير من الكنائس:

– لقد رأيت مظاهرات كثيرة.

ووقفت هذه ووضعت على المائدة ثمن ما شربتا. وقبل أن تغادر المقهى نظرت حولها وعكست المرايا صورتها من كل إتجاه. ولم يكن في المقهى سواي وفرنسية متوسطة العمر منهمكة في إصلاح زينتها بعناية وبدون فائدة. أما هاتان الأمريكيتان فلم تكونا تحتاجان إلى زينة من نوع ما. بل كل ما كان تحتاجان إليه هو إمرار قلم الروج بسرعة على الشفتين وإمرار المشط خلال الشعر. ولمدة لحظة استقر نظر تلك الواقفة عليَ. ولم تكن نظرتها نظرة إمرأة بل نظرة رجل. صريحة مستقيمة تنتظر نوعًا من العمل. ثم استدارت بسرعة إلى زميلتها وقالت:

– يحسن بنا أن نذهب.

ورقبتهما بكسل، وهما تخرجان جنبًا إلى جنب إلى الشارع المشمس.

وفجأة إنهار هذا العالم حولي. فقد تناثرت المرايا من حولي وطارت شظاياها إلى حيث جلست وسقطت الفرنسية على الأرض بين حطام المقاعد والمناضد وكانت حقيبتها ما زالت مفتوحة في حجري. أما أنا فقد ظللت جالسًا حيث كنت برغم أن المنضدة التي كنت أجلس عليها قد انضمت إلى الحطام حول الفرنسية. وملأ جو المقصف صوت غريب. صوت نافورة يتدفق منها الماء بإنتظام رتيب ونظرت ناحية البار ورأيت صفوفًا من الزجاجات المحطمة أخذ ينساب منها هذا الخرير والصفرة غير الصافية للباستيس تنساب كلها على الأرض وجلست الفرنسية ونظرت بهدوء حولها إلى حقيبة يدها وقمت وناولتها إياها وشكرتني وهي جالسة على الأرض وربما لم أسمعها جيدًا. وكان الانفجار قريبًا جدًا لدرجة أن طبلتي أذني لم تعودا إلى حالتهما من وقع الضغط إلا بعد مدة. وساءلت نفسي: أمهزلة أخرى من مهازل البلاستيك؟ وماذا ينتظر مستر هونج مني أن أكتب الآن؟

وعندما وصلت إلى الميدان دل الدخان الكثيف على أن المسألة لم تعلم هزلًا. وكان الدخان يتصاعد من السيارة الواقفة في الموقف المعد لها أمام المسرح القومي. وكانت أجزاء السيارات المحطمة متناثرة على أرض الميدان وهناك رجل قد طارت ساقاه مازال يتلوى على الأرض بجوار حدائق الزينة. وكان الأهالي يتجمعون من شارع كاتينات ومن شارع بونارد ودوى صوت سفارات سيارات البوليس وأجراس عربات الإسعاف والحريق

التي جاءت من كل ناحية ولفترة وجيزة نسيت أن فونج تكون «عادة» في محل اللبن من الناحية الأخرى من الميدان وكان الدخان يحجب الجانب الآخر من الميدان ولا أستطيع أن أراه.

وخطوات ناحية الميدان وأوقفني أحد رجال البوليس الذين ضربوا نطاقًا حول حافة الميدان لمنع الأهالي من التجمهر وأخذ حملة النقالات لحمل الجرحى يصلون. وقلت لرجل البوليس أمامي:

– إن لي صديقًا في الجانب الآخر فدعني أعبر إليه.

فقال:

– إن كل فرد هنا لديه أصدقاء.

وتنحى جانبًا ليدع أحد القسس يمر، وحاولت أن أتبع القسيس غير أنه جذبني فقلت له:

– إنني ممثل الصحافة.

وبحثت عيناي في محفظتي عن بطاقة تحقيق الشخصية غير أني لم أعثر عليها وساءلت نفسي: هل خرجت من المنزل اليوم بدونها؟

وقلت له:

– على الأقل قل لي ما الذي حدث لمحل اللبن؟

وانقشع الدخان بعض الشيء وحاولت أن أرى غير أن الجماهير

حالت بيني وبين الرؤية. وقال رجل البوليس شيئًا لم أسمعه.

وقلت له:

– ما الذي قلته؟

فقال:

– لا أعرف.. تراجع إلى الخلف. إنك تحول بين حملة النقالات وتأدية عملهم.

وساءلت نفسي مرة أخرى.. هل سقطت بطاقتي في المقهى؟ وإستدرت لكي أعود لأبحث عنها ورأيت بيل وصاح:

– توماس.

وقلت:

– بيل.. بحق الله أين جواز مرورك؟ يجب أن نعبر الميدان إن فونج في محل اللبن.

فقال:

– لا.. لا..

فقلت له:

– بيل.. إنها تذهب هناك في الحادية عشرة والنصف دائمًا يجب أن نبحث عنها.

– إنها ليست هنا يا توماس.

– كيف عرفت؟ أين جواز مرورك؟

– لقد حذرتها عدم الذهاب.

واستدرت ناحية رجل البوليس وأنا أنوي أن أدفعه جانبًا وأجري إلى الجانب الآخر للميدان وقد يطلق على الرصاص غير أني لم أبال. ثم وصلت إلى عقلي الباطن كلمة بيل «حذرتها» فساءلت نفسي: ماذا يعني بكلمة حذرت؟

– لقد قلت لها لابد أن تبتعد عن المحل هذا الصباح.

وتكاملت الصورة في ذهني وقلت:

– وكذلك «وارن» من هو «وارن». لقد حذر هؤلاء البنات كذلك.

فقال:

– لست أفهم ما تقول. يجب ألا يكون هناك ضحايا أمريكان أليس كذلك؟

وشقت عربة إسعاف طريقها خلال شارع كاتينات إلى الميدان وتحرك رجل البوليس الذي منعني لكي يدعها تمر. وكان رجل البوليس المجاور له مشتبكًا في حوار. فدفعت بيل أمامي في الميدان. قبل أن يستطيعوا منعنا. وسرعان ما وجدنا أنفسنا ضمن مجموعة من المصابين وكان في استطاعة البوليس منع أناس جدد من دخول الميدان بسد الطرق المؤدية إليه. ولكن لم يكن في استطاعته إخلاء الميدان كلية من شاغليه.

وكان الأطباء مشغولين عن الموتى بمعالجة الجرحى. وترك الموتى لمن يتعرف عليهم.. وجلست إمرأة على الأرض مع ما تبقى معها من طفلها وبنوع من التواضع غطت المرأة باقي أشلاء الطفل بالقبعة العريضة التي تلبسها وكانت جالسة في صمت وسكون، والذي أثر في السكون المخيم على الميدان. وكان الجو يشبه جو كنيسة زرتها مرة في أثناء القداس وكانت الأصوات تصدر «فقط» من الذين يقومون بنجدة المصابين عدا أفراد متفرقين من الأوربيين الذين كانوا يبكون ثم يعاودون الصمت كما لو خجلوا بتواضع وصبر الشرق وتمالكا لزمام نفسه. ورأيت الجذع الفاقد الساقين بجوار الحديقة مازال يتلوى كفرخ مذبوح فقد رأسه. ومن قميصه عرفت أنه سائق عربة. وقال بيل:

– إنه لفظيع.

ثم نظر إلى حذائه المبلول وقال بصوت متحشرج:

– ما هذا؟

فقلت له:

– إنه دم. ألم تره قبل الآن؟

فقال:

– يجب عليَ أن أنظف الحذاء قبل أن أقابل الوزير.

ولا اعتقد أنه كان يفهم ما يقوله. فقد كان يرى الحرب الحقيقية لأول

مرة. فقد شاهد طرفًا منها في «فان ديم» وعلى كل فإن الجنود في نظرة لا أهمية لهم.

وقلت له:

– ماذا يمكن أن يفعل برميل من ديولكتون؟

فأرغمته بوضع يدي على كتفه على أن ينظر حوله وقلت له:

– وفي الساعة التي يكون فيها الميدان مملوءًا بالأطفال والنساء لأنها الساعة التي يتسوقون فيها حاجاتهم. لماذا اخترعت هذه الساعة؟

فقال:

– لقد كان مفروضًا أن يكون هنا إستعراض عسكري.

– وأنت أملت قتل بضعة ضباط ولكن الاستعراض ألغي بالأمس يا بيل.

فقال:

– لم أكن أعرف.

فدفعته إلى بقعة مملوءة بالدم حيث كانت نقالة موضوعة وقلت له:

– كان يجب عليك أن تكون معلوماتك أصح.

فقال وهو ينظر إلى قدميه:

– لقد كنت خارج المدينة. وكان يجب عليهم أن يمتنعوا عن وضع القنابل.

فقلت:

– وبذلك تفوتهم فرصة مشاهدة هذا المنظر.. هل كنت تتوقع أن الجنرال ثي تفوته مثل هذه الفرصة؟

– إن ما حدث كان أحسن بالنسبة له من قتل الجنود في الإستعراض. فالأطفال والنساء جدد في الحرب، ولكن الجنود قدامى في الحرفة وإن هذا القتل الجماعي سوف يثير صحافة العالم وهذا ما يرمي إليه الجنرال ثي. وأنت بذلك قد ساعدته على إظهار نفسه على «الخريطة» يا بيل –لقد وجدت القوة الثالثة التي تبحث عنها. إذهب إلى المنزل وقل لفونج عن بطولتك الفذة فقد نقص من بني وطنها بضع عشرات.

ومر بنا قسيس بدين وهو يحمل شيئًا فوق طبق مغطى «بفوطة» وصمت بيل مدة طويلة وبدا عليه أن لونه شاحب وقد أوشك على الإغماء وقلت لنفسي:

«وما الفائدة؟ سيظل دائمًا ساذجًا وأنت لا تستطيع أن تلوم السذج فهم دائمًا أبرياء وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تسيطر عليهم أو تمحوهم والسذاجة نوع من الجنون.»

ثم قال بيل:

– ما كان يجب أن يفعلوا ذلك، وخاصة ثي. لابد أن الشيوعيين خدعوه.

وكان يبدو بكلامه هذا أنه محصن بنواياه الطيبة وبجهله وتركته واقفًا في

الميدان وسرت في شارع كاتينات حيث تسد الكاتدرائية الحمراء الطريق. وكان الناس يتدفقون عليها.. وكان عزاء لهم أن يصلوا من أجل الموتى وكان لديَ ما أكون شاكرًا عليه. ألم تكن فونج حية؟ ألم تحذر الذي حدث؟ ولكن لم يبرح مخيلتي صورة الجذع الملتوي بجوار الحديقة وبقايا الطفل في حجر أمه. وغير ذلك ممن لم يكونوا مهمين ولم ينذرهم أحد.

ولو سار العرض العسكري كما كان متوقعًا لم يكونوا هم موجودين كذلك لمجرد التطلع وحب المشاهدة للجنود وسماع الخطب ورمي الزهور. وماذا يمكن أن تفعله قنبلة زمنية زنة مائتي رطل؟ وكم كولونيل يموتون لكي يبرر بموتهم بعشرة أشلاء طفل في حجر أمه أو قطع ساقي سائق عربة يكسب رزقه من ساقيه وجره لعربته. إن كل هذا لا يهم في نظر البعض، وأوقفت عربة بموتور وطلبت من سائقها أن يصحبني إلى رصيف «ميتو» بالميناء.

الفصل السادس

لقد أعطيت فونج نقودًا لتصحب أختها إلى السينما، حتى تكون بعيدة عما يحدث وفي سلام وخرجت لتناول العشاء مع «دومنجيز» وكنت في غرفتي ثانية عند العاشرة تمامًا عندما حضر «فيجو» واعتذر لعدم قبوله كأسًا وقال:

– إنه تعب للغاية.

وتناول كأس قد يجلب النعاس إلى عينيه وقد كان اليوم حافلًا بالأحداث وطويلًا بالنسبة له وسألته:

– حوادث قتل وموت فجائي!

– لا. سرقات صغيرة، وبعض حالات الإنتحار، فهؤلاء الناس من أهل البلاد يحبون المغامرة وعندما يفقدون كل شيء فإنهم يقتلون أنفسهم، وربما لم أكن جعلت من نفسي رجل بوليس، لو عرفت الوقت الطويل الذي عليَ أن أقضيه في «المشرحة» بحكم وظيفتي فأنا لا أحب رائحة الأمونيا.. وربما أرغب الآن في قدح من البيرة.

– ليس لدي ثلاجة، ولذا فليس لدي بيرة.

– على كل.. فإن كأسًا من الويسكي تكفي.

وتذكرت الليلة التي توجهت فيها معه إلى «المشرحة» وأخرجوا فيها جثة بيل كأنه صينية من مكعبات الثلج وسألني «فيجو»:

– وعلى ذلك فأنت لن ترحل إلى الوطن؟

– إنك تسأل عني؟

– نعم.

ومددت يدي بكأس الويسكي إليه حتى يرى مدى ثبات أعصابي وقلت له:

– فيجو. إني أود أن تقول لي: لماذا تعتقد أن لي صلة بمقتل بيل؟ وهل ذلك له دافع وهو أني أريد أن أسترد فونج؟ وهل تتخيل أن قتله كان انتقامًا لفقدي إياها؟

فقال:

– لا. فأنا لست غبيًا. فالإنسان لا يأخذ كتاب عدوه كشيء للذكرى وها هو ذا كتابه على رف كتبك «مسئولية الغرب» من هويورك هاردنج؟

فقلت له:

– إنه الرجل الذي تبحث عنه يا فيجو، إنه هو الذي قتل بيل من مسافة بعيدة.

– إني لا أفهم ما تقول.

– إنه صحفي من نوع راق وهم يطلقون عليه إسم مراسل ديبلوماسي فهو تسيطر عليه فكرة ما. ثم يحاول أن يغير من كل موقف لكي يجعله يتمشى مع فكرته. وقد جاء بيل هنا ورأسه مملوء بأفكار يورك هاردنج –وقد مر هاردنج بسايجون مدة أسبوع في طريقه من بانجكوك إلى طوكيو وقد أخطأ بيل بمحاولة تطبيق نظرية هاردنج– فقد كتب هاردنج عن قوة ثالثة تحمل معنى التوازن بين الشيوعيين وبين الاستعماريين القدامى وقام بيل بتكوين قوة ثالثة من رئيس عصابات صفير معه ألفان من الرجال وزوج من النمور المستأنسة. وكانت النتيجة أنه اختلط عليه الأمر.

فقال «فيجو»:

– أما أنت فلا يختلط عليك الأمر أبدًا.

– لقد حاولت ألا أزج بنفسي في مشاكل.

فقال:

– ولكنك لم تنجح يا فولر.

ولسبب ما فكرت في الكابتن «تورين» والليلة التي قضيناها معًا والتي بدت كأنما مرت عليها سنوات. ترى ما الذي يرمي إليه فيجو؟ هل يقصد أننا سوف نجد أنفسنا مشتركين في الصراع إن عاجلًا أو آجلًا تحت دافع شعور ما؟ وقلت:

– إنك تصلح لأن تكون قسيسًا صالحًا يا فيجو. فأنت تستطيع أن تجعل المرء يعترف لك بكل شيء لو كان لديه ما يعترف به.

– إني لم أطلب يومًا ما أي اعتراف.

– ولكنك تتلقى هذه الاعترافات.

– من وقت لآخر.

– هل لأن وظيفتك كالقسيس تجعلك لا تدهش من أي اعتراف بل تكون عطوفًا عندما يقول لك المجرم يا سيدي. يجب أن أقول لك بالضبط لماذا حطمت رأس السيدة العجوز فتقول له نعم يا جوستاف على مهلك وقل لي لماذا فعلت ذلك؟

فقال فيجو:

– إن لك خيالًا خصبًا. ألم تكن تسكر الآن يا فولر؟

– من المؤكد أن السكير غير حكيم بالنسبة للمتهم وخاصة إذا سكر مع ضابط البوليس.

– أنا لم أذكر قط أنك مجرم.

– ولكن افترض أن السكر قد جعلني أرغب في الاعتراف فإن في مهنتك بعكس مهنة القسيس ليس هناك أسرار الاعتراف.

فقال:

– إن السرية نادرًا ما تكون مهمة بالنسبة لرجل يعترف حتى لو كان الذي إعترف له قسيسًا. فإن له دوافعه الأخرى.

فقلت:

– أجل. من أجل إراحة ضميره.

قال:

– ليس دائمًا. فأحيانًا يريد المذنب أن يرى نفسه في وضوح كما هو عليه. وأنت لست مجرمًا يا فولر، ولكن أحب أن أعرف لماذا كذبت عليَ. فلقد رأيت بيل في ليلة موته.

قلت:

– ما الذي يجعلك تظن ذلك؟

– أنا لا يخطر على ذهني أنك قتلته. فأنت لا تستطيع أن تستخدم في قتله سونكي. هذه هي المعلومات التي وصلت إلينا، ولقد قلت لك ذلك برغم أن هذا لم يكن سبب موته فلقد مات غرقًا.

ورفع فيجو كأسه لأصب له كأسًا أخرى وقال:

– دعني أستعد ما حدث. لقد تناولت كأسًا في الكونتننتال في الساعة السادسة وعشر دقائق أليس كذلك؟

ـ بلى.

فتابع كلامه:

– وفي السادسة وخمس وأربعين دقيقة كنت تتكلم مع صحفي آخر على باب فندق الماجستك.

– نعم. مع ويلكنز. لقد قلت لك ذلك يا فيجو قبل هذه الليلة.

– نعم. فقد تحريت عن صحة أقوالك، وإنه لأمر عجيب أن تحمل هذه التفصيلات الدقيقة في رأسك.

فقلت له:

– إنني مراقب صحفي يا فيجو.

– ربما كان التوقيت في حركاتك ليس مضبوطًا. ولكن ما من أحد يلومك لو قضيت ربع ساعة هنا وعشر دقائق هناك، فأنت ليس لديك سبب لكي تعتقد أن للوقت أهمية برغم أن الأمر يشك فيه جدًا أو أن توقيتك لحركاتك كان مضبوطًا جدًا.

فقلت له:

– ألم يكن توقيتي مضبوطًا جدًا؟

– ليس مضبوطًا تمامًا. فقد كانت الساعة السابعة وخمس دقائق عندما كنت تتكلم مع ويلكنز.

فقلت:

– فرق عشر دقائق أخرى؟

فقال:

– بالطبع وكما قلت فإن الساعة كانت تمام السادسة عندما وصلت إلى الكونتيننتال.

فقلت:

– إن ساعتي سريعة بعض الشيء. كم الساعة لديك الآن؟

فنظر في ساعته وقال:

– العاشرة وثماني دقائق.

فقلت له:

– ولكن ساعتي تشير إلى العاشرة وثماني عشرة دقيقة. ألا ترى؟

ولم يهتم فينجر بالنظر إلى ساعتي وقال:

– إذن، فالوقت الذي كنت تتكلم فيه مع ويلكنز كان في الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة على حسب ساعتك. إن هذه تعتبر غلطة كبيرة أليس كذلك؟

فقلت:

– ربما ضبطت الوقت في عقلي. وربما ضبط ساعتي في هذا اليوم. فأنا أحيانًا أفعل ذلك.

فقال فيجو:

– إن ما يهمني. هل لي في قليل من الصودا؟ فقد أعطتني الويسكي قويًا هذه المرة وهل معنى ذلك أنك غاضب مني؟ فإن الإستجواب ليس شيئًا محببًا كما أستجوبك الآن.

فقلت له:

– إني أجد الأمر مسليًا كما لو كان قصة بوليسية. وعلى كل فأنت تعرف أني لم أقتل بيل. وأنت قلت ذلك.

فقال فيجو:

– أنا لم أعلم أنك لم تكن حاضرًا مقتله.

فقلت:

– أنا لا أعرف ما الذي تريد أن تثبته بأن تظهر أنني كنت متأخرًا أو متقدمًا عشر دقائق هنا أو خمس دقائق هناك.

فقال:

– إن ذلك يمنح الإنسان وقتًا أطول. فهي ثغرة في التوقيت.

– وقتًا لعمل أي شيء؟

– لأن يحضر بيل ويراك.

– لماذا ترغب كثيرًا في إثبات ذلك؟

– بسبب الكلب.

– وبسبب الطين الذي وجد بين مخالبه.

– إنه لم يكن طينًا ذلك الذي وجدناه بين مخالبه. بل كان أسمنتًا. هل فهمت؟ ففي مكان ما في تلك الليلة عندما كان الكلب يتبع بيل فإن الكلب مر على أسمنت مبتل. وتذكرت أنه في «الطابق» الأرضي الذي تسكنه كان هناك بعض البنائين يعملون. وقد رأيتهم الليلة كذلك في أثناء حضوري إليك فهم يعملون ساعات طويلة في هذه البلاد.

فقلت:

– إني لأعجب كم بيتًا في سايجون الآن فيه بناءون وحوله أسمنت مبلول. هل ذكر أحدهم رؤية الكلب هنا؟

فقال فيجو:

– بالطبع لقد سألتهم عن ذلك. ولكنهم لو رأوا الكلب هنا ما قال لي أحد منهم ذلك. فأنا رجل بوليس.

وتوقف عن الكلام واضطجع في مقعده وحدق بالنظر إلى الكأس التي في يده وأحسست بأن تفكيره قد انصرف إلى شيء بعيد وزحفت ذبابة على ظاهر يده ولم يحاول أن يبعدها. وشهرت بقوة غير دافعة وغير مرئية. وربما كان يدعو الله في سره.

ووقفت وتوجهت ناحية غرفة النوم.. لم يكن في الغرفة شيء أريده

عدا البعد مدة عن هذا الصمت الجاثم على الكرسي. وكانت ألبومات الصور الخاصة بفونج قد عادت ثانية إلى مكانها على الرف. وقد تركت لي تلغرافًا بين أواني المستحضرات التجميلية التي تستخدمها وربما كانت مرسلة من إدارة الجريدة في لندن. ولم تكن لدي رغبة في الإطلاع عليها وكان كل شيء يبدو كما كان عليه قبل أن يظهر بيل في أفق حياتها. فالغرف لا تتغير وظل ما تزين به الغرفة في مكانه فلا تغيير عدا أن القلب يذوي.

وعدت إلى غرفة الصالون، ورفع فيجو الكأس إلى شفتيه وقلت له:

– ليس لدي ما أقوله لك. ليس لدي شيء على الإطلاق.

فقال:

– إذن سوف أرحل. ولا أعتقد أنني سأضايقك مرة أخرى.

وعند الباب استدار ثانية كما لو كان لا يريد أن يقطع الأمل في الوصول إلى شيء وقال:

– لقد كان غريبًا منك أن تذهب لترى الرواية التمثيلية فأنا لا أعتقد أنك تهتم بروايات الدراما. ماذا كانت الرواية؟ هل كانت «روبن هود»؟

فقلت:

– أعتقد أنها رواية «سكاراموش» وكنت أشعر بأني في حاجة إلى ما يشغل ذهني.

فقال:

– إلى ما يشغل ذهنك؟

فقلت، إشرح له ما أقصده بحذر:

– نعم. فنحن جميعًا لدينا ما يشغلنا يا فيجو.

وعندما رحل فيجو كانت هناك ساعة مازالت باقية على مجيء فونج والشعور بالحياة. وكان غريبًا أن أقلقتني زيارة فيجو. فقد بدا لي كأنه شاعر قد أحضر لي ما نظمه لكي أفقده وبسبب إهمال مني قد حطمت ما نظمه. فقد كنت رجلًا بلا عمل. والمرء لا يستطيع أن «يعتبر» الصحافة عملًا جديًا، ولكني أستطيع أن أرى معنى العمل الجدي لدى رجل آخر والآن وقد رحل فيجو لكي يحفظ ملفه الذي لم يستكمل وددت لو أنه كان لديَ الشجاعة لكي أناديه وأقول:

– إنك على حق، فقد رأيت بيل في ليلة مقتله.

الفصل السابع

في طريقي إلى «رصيف» الميناء مررت بعدة عربات للإسعاف آتية من ناحية الحي الصيني قاصدة الميدان. والإنسان يستطيع أن يقيس مدى الشائعات بالمشاعر التي تظهر على وجوه الناس في الشوارع. وعندما وصلت إلى الحي الصيني كان في إمكاني معرفة الأخبار. فالحياة متدفقة وطبيعية وغير معوقة. فما من أحد كان يدري شيئًا. ووجدت سكن المستر شو وصعدت إلى منزله ولم يتغير شيء منذ زيارتي الأخيرة. فالكلب والقطة يتحركان من الأرض إلى الصناديق ثم إلى الحقائب. كما لو كانا زوجًا من الفرسان في لعبة شطرنج. وكان الطفل يزحف على الأرض والرجلان العجوزان مازالا يلعبان لعبتهما. ولم يكن غائبًا سوى الشباب من أهل البيت وما كدت أظهر في مدخل الباب حتى أخذت إمرأة تصب الشاي في القدح وجلست السيدة العجوز على السرير ونظرت إلى قدميهما وسألت:

– هل المستر هنج موجود؟

وهززت رأسي ممتنعًا أن أتناول الشاي فلم أكن في حالة تسمح لي بأن أبدأ في سلسلة من شرب أقداح الشاي المر. وقلت بالفرنسية:

– إني أرغب في مقابلة المستر هنج.

وكان يبدو مستحيلًا أن أفهمهم ضرورة رؤيتي له، غير أن رفضي

لتناول الشاي قد سبب بعض الإنزعاج، أو ربما كنت مثل بيل يوجد دم على حذائي، وعلى كل فإنه بعد تأخير قليل قادتني إحدى النسوة إلى الخارج وهبطنا السلم وقادتني خلال شارعين مزدحمين بالأعلام المرفوعة والحركة وتركتني أمام ما يطلق عليه في وطن بيل على ما أعتقد «صالون جنازات» وهو محل مملوء بالجرار الفخارية الضخمة حيث توضع عظام الموتى من الصينيين وقلت لأحد الصينيين الواقفين بالباب:

– أين مستر هنج؟

وخيل إليَ أن التوقف في هذا المكان توقف مناسب في يوم بدأ بمشاهدة مجموعة زارعات المطاط من النساء ثم برؤية الأجساد المتناثرة في الميدان وأخيرًا برؤية جرار دفن الموتى لدى التاجر الصيني. ونادى شخص ما من الداخل، وتنحى الصيني جانبًا وقال «أدخل» ورأيت هنج قادمًا نحوي بأدبه المعتاد ثم قادني إلى حجرة صغيرة مصفوف فيها كراسي محفورة غير مريحة من الكراسي الصينية التي تجدها في كل بيت صيني بدون إستعمال. ولكني رأيت أن هذه الكراسي كانت مشغولة فقد رأيت خمسة أقداح صغيرة على المنضدة ومنها إثنان لم يتم شرب الشاي المصبوب فيهما وقلت:

– لقد قطعت عليكم اجتماعكم.

فقال المستر هنج:

– إنها مسائل تجارية غير ذات أهمية. وأنا أكون مسرورًا دائمًا بمقابلتك يا مستر فولر.

فقلت:

– لقد جئت من ميدان جارنيير.

فقال:

– هكذا ظننت.

– لقد سمعت ما حدث.

– لقد أخبرني أحدهم تليفونيًا.. ورأيت من الأفضل البعد عن منزل المستر شو لفترة ما وسوف يكون البوليس مشغولًا بالقبض على كثيرين اليوم.

فقلت له:

– ولكنك لا دخل لك فيما حدث من إلقاء القنبلة.

فقال:

– إن من وظيفة البوليس أن يجد من يلقي اللوم عليه.

– لقد كان بيل هو الفاعل مرة أخرى.

– نعم إنه بيل.

فقلت:

– لقد كان شيئًا فظيعًا ذلك الذي حدث.

فقال:

– إن الجنرال ثي ليس بالشخصية التي يمكن التحكم فيها.

فقلت:

– ولكن اللعب بقنابل البلاستيك ليس للأطفال القادمين من «بوستس». من هو رئيس بيل يا هنج؟

– إن لدي الثقة بأن مستر بيل هو سيد نفسه والمسئول عن أفعاله.

– ما هي وظيفته؟ وهل هو في قسم مكافحة الجاسوسية؟

– إن وظيفته والقسم الذي يتبعه ليسا مهمين.

– ما الذي يمكن أن أفعله يا هنج؟ فإنه يجب إيقافه عن هذه الأعمال..

– تستطيع أن تنشر الحقيقة في الجريدة التي تمثلها لو أنك لا تستطيع؟

فقلت:

– إن جريدتي ليست مهتمة بأخبار الجنرال ثي. إنها مهتمة بأخبار بني وطنك يا هنج.

فقال:

– هل تريد حقيقة أن يوقف المستر بيل عن الأفعال التي يقوم بها يا مستر فولر؟

فقلت:

– لقد رأيته يا هنج وهو واقف يقول: إن ما حدث كان غلطة محزنة فإنه كان من المفروض أن يكون هناك استعراض في هذه الساعة. كما قال إنه يجب عليه أن ينظف حذائه قبل أن يقابل الوزير المفوض.

فقال:

– إذن أنت بالطبع تستطيع أن تذكر للبوليس ما تعرفه عن نشاطه.

فقلت:

– إن البوليس غير مهتم بالجنرال ثي كذلك. وهل تعتقد أن البوليس يجرؤ على مس أمريكي. فإن له حصانة ديبلوماسية. وهو خريج جامعة هارفارد والوزير المفوض يحب بيل جدًا. هنج. لقد رأيت إمرأة في الميدان قتل طفلها، فقامت بتغطية ما بقي من جثته في حجرها بقبعتها المصنوعة من القش وأنا لا أستطيع أن أنسى هذه الصورة كما رأيت مثل هذه المناظر البشعة والترع مملوءة بالجثث في «فات ديم».

فقال:

– حاول أن تكون هادئًا يا مستر فولر.

– ما الذي سوف يفعله في المدة القادمة يا هنج؟ كم من القنابل والقتلى من الأطفال يستطيع أن يتسبب فيهم برميل من «الديولكتون؟»".

– هل أنت على استعداد لمعاونتنا يا مستر فولر؟

فتابعت كلامي قائلًا:

– لقد جاء مقتحمًا البلاد وكان الناس يموتون نتيجة لأخطائه. وأتمنى لو أن بني وطنك يتمكنوا من قتله في أثناء رحلته عبر النهر إلى «نام دينه» فإن ذلك كان قد غير كثيرًا من مصير حياة الكثيرين.

– إني متفق معك يا مستر فولر. ويجب أن نمسك بزمامة ولديَ اقتراح أقدمه.

وسعل رجل خارج الغرفة سعلة خفيفة ثم بصق بصوت مرتفع. وتابع هنج كلامه قائلًا:

– لو دعوته إلى العشاء هذه الليلة في مطعم الطاحونة بين الثامنة والنصف والتاسعة والنصف.

– وما الفائدة؟

فقال هنج:

– سوف نتكلم معه وهو في طريقه إليك.

– قد يكون ليس بمفرده.

– ربما يكون أحسن لو دعوته إلى زيارتك في المنزل في السادسة والنصف وسوف يكون بمفرده في مثل هذه الساعة، ومن المؤكد أنه سيحضر واذا أمكن إبقاؤه لتناول العشاء فأنظر من نافذة مسكنك كما لو كنت تريد أن تشاهد منظر الغروب.

فقلت له:

– لماذا أدعوه إلى مطعم الطاحونة بالذات؟

– لأن المطعم محاور «للكوبري» المؤدي إلى «ماكو» وأعتقد أننا سوف نستطيع أن نجد مكانًا نتكلم فيه بدون أن يزعجنا أحد.

فقلت له:

– وماذا سوف تفعل؟

– أنت لا تريد أن تعرف ذلك يا مستر فولر. غير أني أعدك بأننا سوف نعمل بمنتهى الرفق بقدر ما يسمح الموقف.

وسمعت صوت أصدقاء هنج يتحركون في الخارج كما لو كانوا فأرًا خلف الحائط وتابع هنج كلامه:

– هل تفعل ذلك من أجلنا يا مستر فولر؟

فقلت:

– أنا لا أعرف. أنا لا أعرف.

فقال هنج:

– إن عاجلًا أو آجلًا على المرء أن ينضم إلى أحد الجانبين ليبقى آدميًا.

وتذكرت كلام الكابتن «ترون».

وتركت مذكرة في المفوضية الأمريكية أطلب فيها من بيل أن يمر عليَ بالمنزل، وسرت في الشارع قاصدًا فندق الكونتيننتال لأتناول كأسًا. وكان الحطام المتناثر من فعل القنبلة قد أزيل وقامت فرقة الحريق بغسل الميدان من الدم. ولم تكن لدي فكرة وقتئذ كيف أن الزمن والمكان سوف يصبحان مهمين.

وفكرت في البقاء جالسًا طوال المساء مخلفًا ميعادي مع بيل. ثم فكرت في أنني ربما أنجح في إخافة بيل، وجعله يبتعد عن العمل الذي يقوم به بتحذيره من الخطر الذي يترقبه أيًا كان هذا الخطر. ومن ثم إنتهيت من شرب قدح البيرة الذي طلبته وذهبت إلى المنزل وعندما وصلت إلى المنزل أخذت أتمنى ألا يحضر بيل. وحاولت القراءة ولكن لم يكن لدي من الكتب ما يمكن أن يصرفني عن التفكير وربما كان عليَ أن أدخن لأهدئ أعصابي. وأخذت أنصت برغم إرادتي إلى صوت وقع أقدام وأخيرًا سمعتها. وقرع شخص الباب وفتحت الباب فوجدت «دومينجيز» وقلت له:

– ماذا تريد يا دومنجيز؟

فنظر إلى نظرة تدل على الدهشة وقال وهو ينظر في ساعته:

– ماذا تريد؟ إن هذا هو ميعاد حضوري دائمًا.. هل لديك تلغرافات تريد أن ترسلها؟

فقلت:

– إني آسف لقد نسيت. ليس لدي تلغرافات.

فقال:

– ولكن ألا تريد أن ترسل شيئًا عن القنبلة؟ ألا تريد أن تكتب خبرًا عنها؟

فقلت:

– أكتب شيئًا عنها يا دومنجيز وأرسله، فأنا لا أدري ماذا أكتب وخاصة أني قد رأيت أنا نفسي المشهد وربما قد أثر ذلك في أعصابي. وأنا لا أستطيع التفكير في كتابة الخبر على هيئة برقية.

وضربته بيدي ناموسة أخذت تطن حول أذني ورأيت دومنجيز يتراجع من فعلي بالناموسة فقلت له:

– لم يحدث شيء يا دومنجيز لقد أخطأتها.

فإبتسم بمسكنة، فهو لا يقر القضاء على حياة مخلوق حي وعلى كل فهو مسيحي وسألني دومنجيز:

– هل هناك شيء أستطيع تأديته لك؟

وكان دومنجيز لا يشرب الخمر ولا يأكل اللحم ولا يقتل أحدًا وحسدته على رقته في تفكيره، ثم قلت له:

– لا يا دومنجيز أتركني الليلة.

وراقبته من النافذة وهو يسير في الشارع ولمحت أحد سائقي «الريشو» قد «ركن» عربته تجاه المنزل بجوار «الرصيف». وحاول دومنجيز أن يستأجره ولكن الرجل هز رأسه بالرفض وربما كان ينتظر «عميلًا» داخل أحد المحال، لأن المكان الذي وقف فيه لم يكن موقفًا للعربات. وعندما نظرت في ساعتي راعني أنه لم تمر سوى عشر دقائق على إنتظاري في المنزل. وعندما قرع بيل الباب لم أسمع حتى وقع قدميه. وقلت:

– أدخل.

ولكن «كالعادة» كان كلبه الذي دخل أولًا. وقال بيل:

– لقد كنت مسرورًا عندما تلقيت رسالتك، فقد ظننت أنك كنت غاضبًا جدًا مني حتى هذا الصباح.

فقلت له:

– ربما كان ذلك صحيحًا فإن المنظر في الميدان لم يكن جميلًا.

فقال:

– لقد أصبحت تعرف الآن الكثير. ولن يؤذي أن أقول لك شيئًا آخر. لقد قابلت ثي بعد الظهر.

فقلت:

– رأيته! هل هو في سايجون؟. أعتقد أنه جاء ليرى نتيجة انفجار قنبلته.

فقال:

– لقد عاملته بخشونة يا توماس وأنبته.

وكان بيل يتكلم كأنه رئيس فريق رياضي في مدرسة وقد أخطأ أحد أفراده فلم ينفذ التعليمات والتدريبات وعلى كل فقد سألته بنوع من الأمل:

– هل أعلنت له مقاطعتك إياه بعدما فعل؟

فقال:

– لقد ذكرت له أنه لو قام بأي عمل غير متفق عليه، فسوف تنفض أيدينا منه.

فقلت:

– ولكن ألم تنفض يديك منه بعد يا بيل؟

ودفعت الكلب بصبر نافد وذلك لاقترابه مني. ثم قال بيل:

– لا أستطيع. إجلس يا ديوك. لا أستطيع مقاطعة الجنرال ثي لأنه الأمل الوحيد لنا في المدى الطويل ولو تمكن من الوصول إلى السلطة بمعاونتنا فإننا نستطيع الاعتماد عليه.

فقلت له:

– كم من الناس يجب أن يقتلوا قبل أن تحقق ما تريد. وتتحقق أن...

– أتحقق أي شيء يا توماس.

فقلت:

– تتحقق أن السياسة ليس فيها شيء اسمه الاعتراف بالجميل.

فقال:

– على الأقل فهم لن يكرهونا كما يكرهون الفرنسيين.

– هل أنت متأكد من هذا، فأحيانًا يكون لدينا نوع من الحب لأعدائنا وأحيانًا نشعر بالبغض لأصدقائنا.

– أنت تتكلم كأوربي يا توماس. فإن هؤلاء الناس ليسوا معقدين.

– هذا هو ما تعلمته في أشهر قليلة. وبذلك فسوف تدعوهم بالأطفال في المرة القادمة؟

فقال:

– حسنًا... إنهم فعلًا كذلك بطريقة ما.

فقلت:

– أوجد لي طفلًا واحدًا غير معقد يا بيل. عندما تكون أطفالًا فإننا نكون غابة متشابكة من التعقيدات. ونحن نصبح أكثر «بساطة» كلما تقدمنا في السن. ولكن ما الفائدة من الكلام معك فإن مناقشاتنا نحن الإثنين كانت تقوم على غير الحقيقة.

وقمت من جلستي واتجهت ناحية رف الكتب فقال بيل:

– عم تبحث يا توماس؟

قلت:

– إني أبحث عن عبارة كنت مغرمًا بترديدها. هل يمكنك أن تتناول معي العشاء يا بيل؟

– إني كنت أحب ذلك يا توماس. وأنا في غاية السرور لأنك لم تعد غاضبًا مني وأنا أعلم أنك لا تتفق معي ويمكن أن نختلف في الرأي. أليس كذلك ومع هذا نظل أصدقاء.

فقلت:

– انا لا أعرف. أنا لا أعتقد هذا.

– على كل فإن فونج كانت أكثر أهمية من ذلك كله.

– هل تعتقد حقيقة ذلك يا بيل؟

– ولماذا؟ إنها أهم شيء بالنسبة لي وبالنسبة لك يا توماس.

– ليس بالنسبة لي حاليًا.

– لقد كانت الصدمة عنيفة اليوم يا توماس. ولكن بعد أسبوع سوف ترى فسوف تنساها فنحن قد قمنا بالعناية بأقارب الضحايا.

– ماذا تعني نحن؟

فقال:

– لقد أبرقنا إلى واشنطن. وسوف نحصل على إذن باستخدام بعض أموالنا في معونة الضحايا وأقاربهم.

وقاطعه قائلًا:

– هل تقابلني عند مطعم الطاحونة فيما بين التاسعة والتاسعة والنصف؟

– أي مكان تحب يا توماس.

وذهبت إلى النافذة ورأيت الشمس قد اختفت خلف السطوح. وكان سائق العربة مازال منتظرًا على «الرصيف». ونظرت إليه ورفع وجهه إليه. وقال بيل:

– أي مكان تحب يا توماس؟

وذهبت إلى النافذة ورأيت الشمس قد اختفت خلف السطوح. وكان سائق العربة مازال منتظرًا على «الرصيف». ونظرت إليه ورفع وجهه إليَ. وقال بيل:

– هل تنتظر أحدًا يا توماس؟

– لا. فإني قد وجدت القطعة التي كنت أبحث عنها.

ولكي أخفي قصدي عنه أخذت أقرأ وأنا أرفع الكتاب ناحية الضوء الغارب:

«وسرت خلال الطرقات ولم أبال بشيء وحدق الناس إليَ بالنظر وتساءلوا من أكون؟ ولو كان لديَ فرصة لكي أسحق شريرًا فإني أستطيع تحمل الأضرار لو كانت كبيرة وإنه لأمر يبعث على السرور أن يكون معك نقود. إنه لشيء مبهج أن يكون معك نقود.»

وقال بيل بنوع من الإشمئناط:

– إنها قصيدة مضحكة.

فأجبته:

– إن الشاعر كان رجلًا نابغا من شعراء القرن التاسع عشر ولم يكن هناك كثير على شاكلته.

ونظرت ثانية إلى الشارع. فوجدت سائق العربة قد رحل.

وقال بيل:

– هل فرغ الخمر من عندك؟

– لا ولكنني ظننت أنك لا تحب أن تشرب..

فقال بيل:

– ربما أكون قد ابتدأت أتحرر وذلك بسبب تأثيرك عليَ، وأعتقد أنك طيب معي يا توماس.

وأحضرت الزجاجية والكؤوس، ونسيت أحد الكؤوس في المرة

الأولى. وكان عليَ أن أحضر الماء وكان كل ما أفعله في ذلك المساء يستغرق مني زمنًا طويلًا. وقال بيل:

– أنت تعلم أن لي عائلة طيبة، ولكن ربما كانوا متحفظين بعض الشيء، ولدينا منزل من المنازل القديمة في شارع من شوارع بوستن الجميلة على اليمين الصاعد إلى المرتفع في المدينة وأمي تهوى جمع الزجاج. أما أبي فعندما لا يكون مشغولًا بعمله فإنه يهوى جمع أصول كتب دارون والنسخ النادرة من كتبه. وأنت ترى أنهم يعيشون في الماضي، وربما لهذا السبب كان ليورك هاردنج هذا التأثير عليَ فإن كتاباته تفتح الأبواب على الأحداث الجديدة في العالم أما أبي فهو من المتوحدين الذين يؤثرون الانفراد.

فقلت:

– ربما كنت أحب والدك فأنا متوحد كذلك.

وبالنسبة لرجل هادئ فإن بيل كان مثرثرًا في هذا المساء، ولم أسمع كل ما قاله لأن عقلي كان في مكان آخر. وحاولت أن أقنع نفسي أن المستر هنج لديه وسائل لإسكات بيل غير الوسيلة العنيفة، ولكن في حرب مثل هذه كنت أعرف أنه ليس هناك وقتت للتردد –والإنسان يستخدم السلاح الذي بيده– فالفرنسيون يستخدمون قنابل النابالم ومستر هنج يستخدم السكين أو الرصاصة وقلت لنفسي متأخرًا بالطبع.. إنني لم أخلق لأكون قاضيًا ولو تركت بيل يتكلم لمدة ثم حذرته ما ينتظره على يد المستر هنج وأعوانه فإنه يستطيع قضاء الليل بمنزلي وهم لن يحاولوا قتله في منزلي.

وسمعته يتكلم عن مربيته وهو يقول:

– لقد كانت بالنسبة لي أحسن من أمي، وكانت ماهرة في صنع فطائر التوت.

وقاطعت بيل وقلت له:

– هل تحمل معك مسدسًا الآن –منذ تلك الليلة التي كنا فيها في البرج؟

فقال:

– لا. فإن لدينا أوامر من المفوضية.

– ولكنك تقوم بأعمال خاصة ذات طابع معين.

– إن حملي للمسدس لن يغير من الواقع، ولو أرادوا قتلي فباستطاعتهم ذلك وفي الكلية كانوا يسمونني الوطواط، لأن في استطاعتي أن أرى في الظلام..

وتوجهت ثانية ناحية النافذة، وكان هناك سائق عربة منتظرًا، ولم أكن متأكدًا فإنهم كلهم يبدون متشابهين لي ولكن أعتقد أنه سائق آخر، ربما كان ينتظر حقيقة أحد «الزبائن» وخطر لي أن بيل قد يكون أكثر أمنًا في المفوضية، ولابد أنهم قد رسموا خطتهم منذ أن أعطيتهم الإشارة لكي ينفذوها في المساء عند كوبري «داكو» ولم أكن أستطيع أن أفهم كيف ولماذا اختاروا المكان؟ ومن المؤكد أن بيل ليس مغفلًا إلى درجة الركوب

والمرور في حي «داكو» بعد المساء حيث أن الحراسة لا تكون إلا في ناحية واحدة من «الكوبري».

وقال بيل:

– إنني أتكلم وحدي ولا أعرف لماذا؟ ولكن هذا المساء بالذات أشعر بالحاجة إلى الكلام.

فقلت له:

– تكلم. فأنا في حالة هادئة، وهذا كل ما في الأمر ويحسن بنا أن نلغي هذا الموعد على العشاء.

فقال:

– لا. لا تفعل ذلك حيث أني كنت قد شعرت بأني قد انفصلت عنك منذ.. حسنًا..

فأكملت له:

– منذ أن أنقذت حياتي.

ولم أستطع إخفاء مرارة الجرح الذي سببته لنفسي.

وقال بيل:

– لا. أنا لا أعني ذلك. وعلى كل حال لقد تكلمنا معًا في تلك الليلة. أليس كذلك؟ كما لو كانت ستكون الليلة الأخيرة لنا.. ولقد

عرفت الكثير عنك يا توماس في تلك الليلة وأنا لا أتفق معك عقليًا. ولكن بالنسبة لك فإن البقاء على الحياد قد يكون صحيحًا. وأنت تحافظ على حيادك هذا بكل ما تستطيع حتى بعد أن كسرت ساقك فقد بقيت على الحياد.

فقلت له:

– إن هناك دائمًا نقطة للتحول عن هذا الحياد. وربما دفع الإنسان لها لحظة عاطفية.

فقال:

– أنت لم تصل إلى هذه النقطة بعد. وأشك في أن تصل إليها وأنا كذلك لا أعتقد أني سوف أتغير إلا إذا مت.

وقال ذلك بمرح فقلت له:

– حتى بعد ما حدث في هذا الصباح أليس ذلك كافيًا لأن يتحول الرجل عن آرائه.

فقال:

– إن الذين ماتوا هذا الصباح كانوا من ضحايا الحرب.. وإنه لأمر يبعث على الشفقة. ولكنك في الحرب لا تستطيع دائمًا أن تصيب الهدف المقصود.

فقلت له:

– هل كنت تقول مثل هذا القول لو أن مربيتك التي تصنع لك فطائر التوت قد ماتت الميتة نفسها؟

فتجاهل النقطة وقال:

– على كل فإنك تستطيع أن تقول أنهم ماتوا في سبيل تحقيق الهدف.

فقلت:

– أنا لا أستطيع أن أعرف كيف يترجم قولك هذا إلى اللغة الفيتنامية؟

وفجأة شعرت بالتعب الشديد وأردت أن ينصرف بسرعة ويذهب لكي يقتلوه.. وبذلك أستطيع أن أبدأ الحياة من جديد من النقطة التي قطعها عند ظهوره في مسرح حياتي. وقال لي:

– أنت لن تأخذني مأخذ الجد يا توماس.

ثم قال:

– إن فونج في السينما فما رأيك في أن نقضي المساء كله معًا فليس لدي ما أفعله الآن؟

وبدا لي وكأنما كان هناك شخص من الخارج يوجهه لكي يختار كلماته ليجردني من كل عذر ممكن أتعلل به. وتابع كلامه:

– لماذا لا تذهب إلى الشاليه؟ فأنا لم أذهب إليه منذ الليلة التي كنا فيها معًا هناك والطعام جيد مثل طعام الطاحونة وهناك الموسيقى.

فقلت له:

– إني أفضل ألا أتذكر تلك الليلة.

فقال:

– إنني آسف، فأنا في بعض الأحيان أكون مغفلًا يا توماس وما رأيك في عشاء صيني في حي «شولون»؟

فقلت له:

– لكي تحصل على عشاء ممتاز في الحي الصيني يجب عليك أن تأمر به قبل ذهابك بعدة ساعات، هل تخاف من مطعم الطاحونة يا بيل؟ إن الأسلاك الشائكة محيطة به تمامًا وهناك البوليس باستمرار فوق «الكوبري»، وأنت لست مغفلًا حتى تفكر في السير في حي «داكو».

فقال:

– إن الأمر ليس كذلك وإنما فكرت أن الأمر يكون مسليًا لو استطعنا أن نطيل من سهرتنا.

وتحرك بيل فأوقع كأسه على الأرض وأخذت ألتقط الشظايا وأضعها في المطفأة فقال بسرعة:

– حظ سعيد. أنا آسف يا توماس.

وأخذت ألتقط الشظايا وأضعها في المطفأة. وفكرني الزجاج المتطاير بزجاجات الخمر المنسكبة في البار وقت انفجار القنبلة وقال بيل:

– ما رأيك يا توماس فيما قلت؟ لقد حذرت فونج.. إنني سأكون معك.

وقلت لنفسي: تبدو كلمة «حذرت» سيئة للغاية. والتقطت شظية من شظايا الكأس المكسورة وقلت:

– إني مرتبط بموعد في الماجستك فلا أستطيع مقابلتك قبل التاسعة.

فقال بيل:

– حسنًا. أعتقد أن عليَ أن أعود إلى المكتب وأنا إنما أخاف دائمًا من أن يعطلوني في المكتب.

وقلت لنفسي:

– إنه ليس هناك ضرر في إعطائه هذه الفرصة الوحيدة.

وقلت له:

– لا تبال إذا تأخرت عن الميعاد، ولو عطلوك في المكتب فمر على هنا في المنزل فسوف أعود في الساعة العاشرة لو لم تتمكن من تناول العشاء معي وسوف أنتظرك.

فقال:

– سوف أخبرك بما قد يحدث.

فقلت:

– لا تهتم. إن كل ما عليك أن تحاول مقابلتي في مطعم الطاحونة أو تقابلني هنا في المنزل.

وبذلك يمنح الفرصة للحياة مرة أخرى، وقد تكتب له النجاة إذ يجد تلغرافًا على المكتب يؤخره أو رسالة من الوزير المفوض يقتضي الأمر سرعة الرد عليها.

وقلت له:

– أذهب الآن يا بيل، فلدي أعمال أريد أن أفهمها.

وشعرت بالتعب وأنا أسمعه يغادر المنزل وصوت مخالب كلبه على الأرض.

وعندما خرجت من المنزل لم أجد عربات للإيجار بجوار المنزل وسرت على قدمي إلى فندق «الماجستك» وأخذت أشاهد تفريغ قاذفات القنابل الأمريكية وكانت الشمس قد غربت والعمال يعملون على ضوء المصابيح الكشافة، ولم تكن لديَ فكرة عن محاولة خلق دليل لإبعاد الشبهات عني في حالة قتله. ولكني قلت له:

– إني ذاهب إلى «الماجستك».

وشعرت بكراهيتي لأن أتمادى في الكذب أكثر من اللازم وسمعت من يقول:

– مساء الخير يا فولر.

ولقد كان ويلكنز.

فقلت:

– مساء الخير.

فقال:

– كيف حال ساقك؟

فأجبته:

– إنها لا تؤلمني الآن.

فقال:

– هل أرسلت برقية بما حدث اليوم؟

فقلت:

– لقد تركت الأمر لدومنجيز.

فقال:

– «آه» لقد قالوا لي: إنك كنت هناك ساعة الانفجار.

– نعم، ولكن الجرائد مزدحمة بالأخبار والجريدة تريد كثيرًا من مثل هذه الأخبار.

فقال:

– إن المسألة أصبحت لا طعم لها. وكان الأجدر بك أن تكون حيًا في زمن الصحافة القديمة حين كانوا يرسلون بالبالونات. وكان الصحفي يجد متسعًا من الوقت لأن يكتب رسائل خيالية. بل كان يستطيع أن يحرر مقالًا عن الذي حدث اليوم وكنت تستطيع في رسالتك إلى الجريدة أن تسهب في وصف الفندق الضخم الذي تنزل فيه ورؤية قاذفات القنابل وتصف حلول الليل .. أما الآن فلم يعد في استطاعتك وصف هذا حيث أن كل كلمة تكلفك الكثير عندما ترسلها بالبرق.

وترامى إلى آذاننا صوت ضحكات وحطم أحدهم كأسًا مثلما حطم بيل كأسه وقال ويلكنز:

– إن المصابيح تضيء على وجوه نساء جميلات ورجال شجعان مرددًا بذلك قول لورد بيرون في قصيدته عن ليلة معركة واترلو ثم قال:

– هل عندك شيء تعمله الليلة يا فولر؟ هل ترغب في أن تتعشى معي؟

فقلت له:

– إنني سوف أتعشى في الطاحونة.

فقال:

– أتمنى لك السعادة. إن جرانجر سوف يكون هناك ويجدر بهم أن يعلنوا عن الليالي التي يقيمها جرانجر لهؤلاء الذين يحبون الضجين في الحفلات.

وقلت له:

– مساء الخير ودخلت دار السينما المجاورة، وشاهدت فيلمًا لإيرول فلين أو ربما كان تيرون باور فأنا لا أستطيع التمييز بينهما عندما يرتديان «البنطلونات المحزقة» وأخذ البطل «يتشقلب» على الحبال ويقفز من الشرفات ويركب الخيول عارية الظهر كل ذلك بالألوان الطبيعية. وأنقذ البطل فتاة وقتل خصمه وعاش حياة مملوءة بالمغامرات.

وكان الفيلم من أفلام الصبيان، وكنت أفضل رؤية فيلم أو مسرحية أشاهد فيها صورة أوديب بعينيه يقطران دمًا،فمثل هذا الفيلم بالتأكيد يعطي المرء مرانًا على مواجهة الحياة اليوم وما من حياة خالدة فالكل له ساعته فلقد حالف الحظ بيل في «فات ديم» وفي الطريق من «تانين» ولكن الحظ لن يستمر وأمامهم ساعتان فقط لكي يثبتوا أن الحظ معه قد انتهى وجلس بجواري في السينما جندي فرنسي وبجانبه فتاة وقد وضع يده على حجرها وحسدته على «بساطته» مما يدخل في قلبه السعادة أو الشقاء أيًا كان أحدهما،وتركت السينما قبل أن ينتهي الفيلم وأخذت عربة إلى مطعم الطاحونة وكان المطعم محاطًا بالأسلاك الشائكة لحمايته من قذف

القنابل اليدوية ورأيت جنديين في نوبة حراسة في نهاية «الكوبرى» ..وقادني صاحب المطعم الذي إكتنز بالشحم نتيجة لطعامه البورجندي الشهي خلال الأسلاك الشائكة إلى داخل المطعم. وكان المكان تفوح فيه رائحة الزبد والأسماك المقلية بسبب الحر الخانق عند المساء وقلة وجود الهواء وقال لي:

– هل ستنضم إلى حفلة المسيو جرانجر؟

فقلت:

– لا..

فقال:

– هل تريد منضدة لشخص واحد؟

فجعلني ذلك أفكر لأول مرة في المستقبل والإجابة عن الأسئلة التي يمكن أن توجه إليَ وقلت له:

– أجل!.

– لشخص واحد.

وقلت عنها كما لو كنت قد صرحت بأعلى صوتي، إن بيل مات وكان المطعم حجرة كبيرة واحدة والمدعوون إلى حفلة جرانجر يحتلون منضدة في أحد الأركان في مؤخرة الحجرة وأعطاني صاحب المحل منضدة صغيرة بجوار الأسلاك الشائكة. ولم يكن للنوافذ زجاج خوف تطاير شظاياه

في حالة قذف قنبلة يدوية وتعرفت على البعض ممن دعاهم جرانجر وإنحنيت لهم قبل أن أجلس.

أما جرانجر نفسه فقد أشاح عني بوجهه. وكنت لم أره من شهور منذ تلك الليلة التي سقط فيها بيل في حب فونج. وربما لملاحظة قاسية قلتها في ذلك المساء قد دخلت رأسه من خلال بخار الكحول، لأنه جلس وهو ينظر إليَ وقد قطب بين حاجبيه على حين جلس معه مدعووه يتضاحكون وكان معه صاحب فندق في أحد البلاد الصغيرة في الشمال وفتاة فرنسية لم أرها من قبل وإثنان أو ثلاثة قد رأيتهما في «البارات» قبل ذلك وكان يبدو أنها حفلة هادئة.

وأمرت ببعض الحلوى لأتسلى بها حتى أعطي بيل الوقت الكافي للحضور وأحيانًا لا تسير الخطط وفق ما رسمت. وما دمت لم أشرع في تناول عشائي فإن ذلك يحيي الأمل في حضوره. ثم تعجبت من هذا الأمل وما أرتجيه منه هل أرتجي التوفيق لفرقة مقاومة التجسس التي يتبعها. أو أتمنى التوفيق لقنابل البلاستيك والجنرال ثي. أو أتمنى أنا وحدي من دون الناس جميعًا نوعًا من المعجزة وكم يكون الأمر سهلًا لو قتلنا نحن – الإثنين– على الطريق في «تان ين»!

وجلست أتناول الحلوى لمدة عشرين دقيقة ثم أمرت بالعشاء، لأن الساعة قد بلغت التاسعة والنصف وهو لن يحضر الآن ورغمًا عني أخذت أنصت لأي شيء؟ لصرخة. أو لطلقة رصاص أو لحركة من رجال البوليس

في الخارج. وعلى كل حال فإن من المحتمل ألا أسمع شيئًا فقد أخذت حفلة جرانجر يتعالى أصوات أصحابها.

وكان صاحب المطعم الذي له صوت مقبول قد أخذ يغني وتطاير غطاء زجاجة شمبانيا وتابعه ثان وثالث ولكن جرانجر كان صامتًا فقد جلس بعينيه المحمرتين يحدق عبر الغرفة. وساءلت نفسي: هل ستكون معركة بيننا فإنني لست «كفئًا» لجرانجر؟

وكان المدعوون يغنون وجلست بعد أن شبعت وتمنيت لأول مرة رغمًا عني في أن فونج سالمة وفي أمان. وتذكرت كيف كان بيل وهو جالس على الأرض فوق سطح البرج ينتظر رجال الفيتمنة وهو يقول:

– إنها تبدو غضة مثل الزهرة وكيف؟

أجبته:

– زهرة مسكينة.

وقلت لنفسي:

– إنها الآن وبعد موته لن ترى وطنه أو تتعلم أسرار لعبة الكانستا. وربما لن تعرف الأمان «والضمان» في حياتها. وتساءلت: بأي حق أقدرها بأقل من تقديري للذين ماتوا في الميدان هذا الصباح. وإن الآلام لا تزيد بزيادة العدد، فقد يعذب جسد واحد يحوي كل الآلام التي يمكن أن يشعر بها الكثيرون.

ولقد أصدرت حكمي كصحفي على أساس العدد، وقد خنت بذلك القواعد التي سرت عليها. فلقد أصبحت مشتبكًا في الصراع بين الطرفين مثلي مثل بيل، وبدا لي أن تقدير أي شيء لن يبدو سهلًا بعد الآن. ونظرت إلى ساعتي فوجدتها العاشرة إلا الربع وربما كانوا قد أمسكوا به، وربما أن أحدًا ما يؤمن هو به قد قام بالعمل بدلًا منه وجلس الآن في دار المفوضية يحاول حل شفرة إحدى البرقيات. وسرعان ما أراه قادمًا يصعد في السلالم إلى مسكني وقلت لنفسي:

لو جاء الليلة لقلت له كل شيء.

وقام جرانجر فجأة من فوق منضدته وجاء ناحيتي ولم ير حتى الكرسي الذي إعترض طريقه وكاد يسقط فإعتمد بيده على حافة المنضدة التي أجلس عليها وقال:

– فولر، تعال الخارج.

فتبعته إلى الخارج برغم أنني كنت في حالة لا تسمح لي بمقابلته ولكن في تلك اللحظة ما كنت أبالي لو ضربني حتى يغمى عليَ لأننا نحن البشر لنا طرق قليلة نعبر بها عن شعورنا بالذنب.

واستند جرانجر على حافة «الكوبري» وأخذ رجلا البوليس الواقفان للحراسة يرقباننا من بعد وقال:

– يجب أن أتكلم معك يا فولر؟

فاقتربت منه في متناول يده وانتظرت فلم يتحرك وكان يبدو ليَ أنه مثال لكل ما أكرهه في أمريكا فهو في نظري ذو مظهر غير حسن مثله في ذلك مثل تمثال الحرية وكذلك لا يعبر عن شيء كالتمثال تمامًا وقال دون أن يتحرك:

– أنت تعتقد أنني مهرج. أنت مخطئ في هذا.

فقلت له:

– ماذا تريد يا جرانجر؟

فقال:

– يجب عليَ أن أتكلم معك يا فولر فأنا لا أريد أن أجلس مع هذه الضفادع الليلة. وأنا لا أحبك يا فولر ولكنك تتكلم الإنجليزية، نوعًا ما من الإنجليزية.

واعتمد بجسده الضخم غير المحدود المعالم تحت الضوء الخافت وأردت أن أعرف ماذا يريد؟

فقلت:

– ماذا تريد يا جرانجر؟

فقال:

– أنا لا أعرف لماذا يحبك بيل؟ ربما لأنه من بوستن، ولكنني من «بتسبرج» وأنا فخور بهذا.

فقلت له:

– ولماذا لا تكون فخورًا؟

فقال:

– ها أنت ثانية تتكلم بتعال. إنكم معشر الإنجليز تعتقدون أنكم خير من غيركم. وأنت تعتقد أنك تعرف كل شيء.

فقلت له:

– سعدت مساء يا جرانجر. إن لديَ موعدًا.

فقال:

– لا تذهب يا فولر. أليس لديك قلب؟ وأنا لا أستطيع الكلام مع تلك الضفادع.

فقلت له:

– إنك مخمور.

فأجاب:

– لقد شربت كأسين من الشمبانيا. هذا كل ما هناك، أتكون مخمورًا لو كنت في مكاني؟ إن عليَ أن أذهب إلى الشمال.

فقلت له:

– وأي ضرر في هذا؟

فقال:

– أنا لم أقل لك.. هل ذكرت لك..؟ وأعتقد أن الكل يعلمون.. لقد تلقيت برقية اليوم من زوجتي.

فقلت:

– نعم..

فتابع كلامه:

– لقد أصيب ابني بشلل الأطفال وكانت اصابته شديدة.

فقلت:

– أنا آسف لذلك.

فقال:

– لا عليك.. فإنه ليس إبنك!

فقلت:

– ألا تستطيع أن تعود إلى الوطن بالطائرة؟.

فقال:

– لا أستطيع فإنهم يريدون مقالًا عن عملية حربية ملعونة بالقرب من هانوي. وكونوللي مساعدي مريض.

فقلت:

– أنا آسف يا جرانجر. كان بودي لو استطعت مساعدتك.

فقال:

– إن الليلة هي ليلة عيد ميلاد إبني وسوف يبلغ الثامنة في العاشرة والنصف الليلة حسب التوقيت المحلي في أمريكا. ولهذا السبب أقمت حفلة الشمبانيا هذه قبل أن تصل إلى البرقية. وكان عليَ أن أقول لشخص ما أشعر به وأنا لا أستطيع أن أصارح هؤلاء الضفادع بشعوري.

فقلت له:

– إنهم يستطيعون أن يفعلوا الكثير لمعالجة الشلل هذه الأيام.

فقال:

– أنا لا أبالي إذا أصبح مقعدًا يا فولر بشرط أن يعيش. ولو كنت أنا الذي أصيب بهذا المرض ما أصبحت شيئًا. ولكنه يمتاز بذكاء. هل تعرف ماذا كنت أفعل على حين كان هؤلاء الملاعين يغنون؟ لقد كنت أصلي. وظننت أنه إذا أراد الله أن يقبض روحًا فإنه يستطيع أن يقبض روحي ويبقى إبني.

فقلت له:

– هل تعتقد في الله إذن؟

فقال:

– بودي لو كنت مؤمنًا.

ومر بيده على وجهه كما لو كان رأسه يؤلمه من صداع. ولكن حركة يده كانت لإخفاء الحقيقة وهي أنه كان يمسح الدموع من عينيه. فقلت له:

– لو كنت في مكانك لجعلت نفسي مخمورًا.

فقال:

– لا. يجب أن أظل متيقظًا، فأنا لا أريد أن أفكر بعد ذلك. إنني كنت سكران ليلة موت إبني وزوجتي لا تستطيع أن تشرب. هل تستطيع أن تسكر هي الأخرى لتنسى؟

فقلت له:

– ألا تستطيع أن تخاطب الجريدة التي تعمل معها؟

فقال:

– إن كونوللي ليس في الحقيقة مريضًا. لقد سافر إلى سنغافورة وراء فتاة يحبها. وعليَ أن «أغطيه» وإلا فصلته الجريدة.

وجمع جرانجر جسده المكوم وقال:

– آسف إذا عطلتك يا فولر، ولكن كان يجب أن أتكلم مع شخص ما. يجب عليَ أن أعود الآن إلى المدعوين. وإنه من المضحك أن أتكلم معك وأنت تكرهني.

فقلت له:

– أنا على استعداد للقيام بالرحلة بدلًا منك، وأستطيع أن أدعي أنها من عمل كونوللي.

فقال:

– لا. لن تستطيع فإن لهجتك سوف تكشف الموضوع.

فقلت له:

– أنا لا أكرهك يا جرانجر ولكني كنت أعمى عن ملاحظة بعض الأشياء.

فقال:

– آه. أنت وأنا كنا كالكلب والقطة ولكن أشكرك على كل حال على عطفك.

وساءلت نفسي: هل أنا مختلف عن بيل؟ أيجب عليَ أن أدفع بقدمي في خضم الحياة قبل أن أرى الألم. ودخل جرانجر المطعم وسمعت الأصوات ترتفع إبتهاجًا بمقدمه ولم يكن حولي أحد ثم سرت في الشارع بدون أمل، وهناك التقيت بفونج.

الفصل الثامن

وسألتني فونج:

– هل زارك مسيو فيجو؟

فقلت:

– نعم. لقد تركني منذ ربع ساعة هل كان الفيلم حسنًا؟

وكانت قد أخذت الصينية في غرفة النوم، وقالت:

– لقد كان الفيلم محزنًا للغاية، ولكن الألوان الطبيعية كانت جميلة. ما الذي كان يريده مسيو فيجو؟

فأجبت:

– كان يريد أن يسألني بضعة أسئلة.

فقالت:

– عن ماذا؟

فأجبتها:

– عن هذا وذاك. وأنا لا أعتقد أنه سيضايقني مرة أخرى.

فقالت:

– إني أحب الأفلام ذات النهاية السعيدة. هل أنت مستعد للشرب؟

فقلت لها وأنا مستلق على السرير:

– نعم أنا مستعد.

فقالت:

– لقد قطعوا رأس الفتاة.

فقلت:

– أي شيء غريب هذا الذي فعلوه؟

فقالت:

– إن ذلك كان زمن الثورة الفرنسية.

فقلت:

– آه. فيلم تاريخي. لقد فهمت.

فقالت:

– لقد كان الفيلم محزنًا على أي حال.

فقلت:

– أنا لا أهتم كثيرًا بما يحدث للناس في الأفلام التاريخية.

فقالت:

– وحبيبها. لقد عاد ثانية إلى غرفته وكان بائسًا فكتب أغنية فأنت ترى أنه كان شاعرًا وسرعان ما أخذ الناس يغنونها حتى أولئك الذين قطعوا رأس حبيبته. وكانت الأغنية هي المارسلييز.

فقلت:

– لا يبدو أنه تاريخيًا جدًا.

فتابعت كلامها قائلة:

– لقد وقف هناك لدى الجموع التي أخذت تغني. وكان شعوره مريرًا وعندما كان يبتسم كنت تستطيع أن تشعر أنه أكثر مرارة وأنه يفكر فيها. لقد بكيت كثيرًا وكذلك بكت أختي.

فقلت:

– أختك تبكي؟ أنا لا أصدق هذا.

فقالت:

– إنها شديدة الحساسية، وكان مستر جرانجر السخيف هناك. وكان مخمورًا وأخذ يضحك في أثناء الفيلم. برغم أن الفيلم لم يكن مضحكًا بالمرة. فلقد كان محزنًا.

فقلت:

– أنا لا ألومه. فإن لديه شيئًا يحتفل به فولده قد خرج من مرحلة الخطر. فقد سمعت ذلك في فندق الكونتننتال. وأنا أحب النهايات الجميلة كذلك.

وبعد أن دخنت تمددت على ظهري. وعنقي فوق المخدة الجلدية وأرحت يدي في حجر فونج وسألتها:

– هل أنت سعيدة؟

فقالت بعدم إكتراث:

– بالطبع.

ولم أكن أستحق جوابًا أحسن من هذا. وكذبت وقلت:

– لقد عادت الأمور إلى ما كانت عليه منذ سنة.

فأجابت:

– نعم.

فقلت:

– إنك لم تشتري وشاحًا جديدًا منذ مدة. لماذا لا تقومين بشراء واحد في الغد؟

فقالت:

– إن الغد يوم عيد.

فقلت:

– نعم. بالطبع. لقد نسيت ذلك.

وقالت فونج:

– إنك لم تفتح البرقية.

فقلت لها:

– لا. لم أفتحها لقد نسيت ذلك وأنا لا أحب أن أفكر في العمل الليلة، أذكري لي ما شاهدته في الفيلم.

فقالت:

– حسنًا. إن حبيب الفتاة حاول أن ينقذها من السجن في ملابس صبي وقبعة رجل كالتي يلبسها حراس السجن، ولكن بينما كانت تجتاز بوابة السجن سقط شعرها فصاح الحراس:

– أرستقراطية .. أرستقراطية.

– وأعتقد أن هذه غلطة في القصة. كان يجب عليهم أن يتركوها تهرب لتتزوج حبيبها وبذلك يستطيع الإثنان أن يجمعا مبلغًا كبيرًا من النقود عن طريق الأغنية وبذلك يستطيعان أن يذهبا إلى أمريكا أو إنجلترا.

وأضافت كلمة «إنجلترا» بنوع إعتقدت هي أن فيه خبثًا منها وذكاء فقلت:

– يحسن بي أن أقرأ التلغراف. وأضرع إلى الله ألا يكون عليَ أن أسافر إلى الشمال في الغد. فأنا أريد أن أبقى معك هادئًا.

وجاءت بالتلغراف من بين أواني الكريم وأدوات الزينة وأعطتني إياه وفتحته وقرأت فيه:

«لقد فكرت فيما جاء بخطابك ثانية. وأنا أفعل ما كنت تتمناه وطلبت من المحامي أن يعد إجراءات الطلاق على أساس الهجر وليرعك الله «المحبة: هيلين»:

وقالت فونج:

– هل عليك أن تسافر في الغد؟

فقلت:

– لا، ليس عليَ أن أذهب. خذي إقرأيه .. ها هي ذي النهاية السعيدة بالنسبة لك. فقفزت من فوق السرير وقالت:

– إن هذا جميل جدًا يجب أن أذهب وأقول لأختي، فإنها سوف تكون مسرورة وسوف أقول لها هل تعرفين من أنا؟ أنا زوجة مسيو فولر الثانية.

وكان أمامي على رف الكتب كتاب هاردنج «مسئولية الغرب» ورأيت فيه صورة بيل وهو رجل شاب ذو شعر قصير وبجواره كلب أسود عند موطئ قدميه.

وقلت لفونج:

– هل تفتقدينه كثيرًا؟

فقالت:

– من؟

فقلت:

– بيل.

وكان غريبًا ألا أستعمل إسمه الأول حتى مع فونج.

وقالت:

– هل يمكنني أن أذهب إذا سمحت؟ فإن أختي سوف تذهل.

فقلت:

– لقد نطقت بإسمه مرة وأنت نائمة.

فقالت:

– أنا لا أتذكر أبدًا أحلامي.

فقلت:

– كانت هناك أشياء كثيرة تستطيعان أن تعملاها. فإنه كان شابًا.

فقلت:

– إنك لست بعجوز.

فقلت:

وناطحات السحاب ومبنى الأمباير ستيت.

فقالت بتردد «بسيط»:

– إني أريد أن أرى إنجلترا.

فقلت لها:

– إن إنجلترا ليست في عظمة أمريكا. وأنا آسف يا فونج.

فقالت:

– لأي شيء تتأسف؟ إن البرقية عجيبة. وأختي...

فقلت:

– نعم. إذهبي وقولي لأختك. ولكن قبليني أولًا.

وقبلتني بفمها المضطرب على وجهي ثم ذهبت لأختها.

واستعدت ذكرى اليوم الأول وبيل جالس بجواري في الكونتيننتال وعيناه ناظرتان إلى المحل عبر الشارع. لقد سار كل شيء في مصلحتي منذ أن مات ولكن طالما تمنيت لو أن شخصًا موجودًا الآن لكي أستطيع أن أقول له إني نادم على ما فعلت.

الفهرس